محمد

رسول الله ﷺ منهج ورسالة

بحث وتحقيق

الشيخ / محمد الصادق عرجون

الجزء ٢٨



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

قصة حاطب بن أبي بلتعة وكتابه إلى قريش

قال ابن إسحاق - كما حكاه عن ابن كثير - لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة - وجعل لها جعلا على أن تبلغه إلى قريش، فأخفته وخرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو.

وفي رواية للبخاري عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- من طريق أبي عبد الرحمن السلمي، قال علي: بعثني وأبا مرثد الغنوي والزبير، وكلنا فارس، وفي رواية أخرى للشيخين عن علي: بعثني ﷺ أنا والزبير والمقداد، وزاد البيضاوي عمارًا وطلحة.

ويظهر أن هذا ليس اختلافًا في المبعوثين وعددهم وأسمائهم، ولكنه بيان بأن المبعوثين كانوا جماعة، فذكر بعض الرواة بعضهم، وذكر آخرون بعضًا آخر منهم، وكون المبعوثين جماعة أوفق للمقام والحال، لأنه من باب الحذر والاحتياط لما عسى أن يكون في الطريق ممن يعرف خبر الكتاب والمرأة، فيقاتلون دون أن تصل بالكتاب إلى مكة، ويحتمل أن من زاد على الزبير والمقداد كانوا كمينًا للحذر.

وذكر ابن حجر في التوفيق بين الروايات رأيا آخر، وقف به عند رواية الشيخين أو رواية البخاري وحده، فقال: ويحتمل أن الثلاثة كانوا مع علي رضي الله عنه، فذكر أحد الراويين عنه ما لم يذكره الآخر.

قصة كتاب حاطب واستحضاره والاختلاف في نصه

ثم قال رسول الله ﷺ لمبعوثيه: «انطلقوا حتى تأتوا روضة (خاخ) فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها»[١].

قال علي رضي الله عنه: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة - وهي مكان على بعد بريد من المدينة - فإذا نحن بالظعينة، فقلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب فأنخناها، فالتمسنا فلم نر كتابًا، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، فقلنا لها: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فلما رأت الجد قالت أعرض، فأعرض فأخرجته من عقاصها - أي لفائف شعرها - فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة وسمى منهم سهيلًا، وصفوان، وعكرمة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وما أجمع عليه من الأمر في السير إليهم.

وقد ذكر أهل المغازي نص كتاب حاطب إلى المشركين، وهو - كما ذكره السهيلي في روضه-: أما بعد، يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه منجز له ما وعده.

---

(١) صحيح البخاري.

ثــم قال الســهيلي : وفي تفســير يحيى بن ســلام أن حاطبًا كتب : إن محمدًا قد نفر ، فإما إليكم وإما إلى غيركم ، فعليكم بالحذر.

وفــي حديث علي رضي الله عنه عنــد البخاري ، قال : حدثنا قتيبة ، حدثنا ســفيان عن عمرو بن دينار ، أخبرني الحســن بن محمد : أنه ســمع عبيــد الله بن أبي رافع ، ســمعت عليًا يقول : بعثني رســول الله ﷺ أنا والزبيــر والمقداد ، فقــال : «انطلقوا حتــى تأتوا روضــة خاخ ، فإن بهــا ظعينة معها كتــاب ، فخذوه منهــا ، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتــى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجــن الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عِقَاصِها[٢] ، فأتينا به رســول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشــركين يخبرهم ببعض أمر رســول الله ﷺ ، فقــال ﷺ : «يا حاطب ما هذا؟» فقال حاطب : يا رســول الله لا تعجــل علي ، إني كنت امرءًا ملصقًــا في قريش - يقول : كنت حليفًــا ولم أكن من أَنْفُسِــها - وكان من معــك من المهاجرين لهــم قرابات يحْمُــون بها أهليهم وأموالهــم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النســب فيهــم أن أتخذ عندهم يــدًا ، يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقــال رســول الله ﷺ : «أما إنه قد صدقكــم» فقال عمر : يا

(٢) المعنى من ضفيرة شعرها. (المجلة)

رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله سورة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾

إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الممتحنة: ١)

قال ابن كثير: وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من حديث سفيان ابن عيينة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الإمام أحمد: حدثنا حجين ويونس، قالا: حدثنا ليث بن سعد، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة، يذكر أن رسول الله ﷺ أراد غزوهم، فدل رسول الله على المرأة التي معها الكتاب، فأرسل إليها، فأخذ كتابها من رأسها، وقال: «يا حاطب أفعلت» قال: نعم، أما إني لم أفعله غشًا لرسول الله ﷺ، ولا نفاقًا، قد علمت أن الله مظهر رسوله، ومتم له أمره، غير أني كنت غريبًا بين ظهرانيهم، وكانت والدتي معهم، فأردت أن أتخذ يدًا عندهم، فقال له عمر: ألا أضرب رأس هذا؟ فقال ﷺ: «أتقتل رجلًا من أهل بدر! وما يدريك لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم».

قال ابن كثير: تفرد بهذا الحديث من هذا الوجه الإمام

أحمد، وإسناده على شرط مسلم.

وموقـف عمر رضي الله عنه في حادث حاطب بن أبي بلتعة، وكتابـه إلى قريش، وذكره لهم في كتابه ما أجمع عليه رسـول الله ﷺ مـن المسـير إليهم بجيش كثيف وتأهبـه لحربهم بما لا طاقـة لهـم به - مشـكل عسـير الدفع - إذا صحـت الرواية بـه - إذ كيف يقول عمر رضي الله عنه عقب سـماع النبي ﷺ إقـرار حاطـب بذنبـه، واعترافـه به، واعتـذاره عنـه بين يدي النبي ﷺ على مشـهد ومرأى ومسـمع مـن الصحابة رضي الله عنهم، وتصديق النبي ﷺ له فيما قال في اعتذاره ووصيته ﷺ الصحابـة بـه وأن لا يقولـوا له إلا خيـرًا-: دعني يا رسـول الله أضرب عنق هذا المنافق.

ورسـول الله ﷺ لـم يـأل فـي التحقيـق مـع حاطـب، فقد سـأله ﷺ عن صنيعه فلم ينكره، ولكن بيّن لرسول الله ﷺ ما حملـه على ذلك، وأنه لم يفعله نفاقًا ولا كفرًا، وأقسـم أنه ما ارتاب في الله منذ أسـلم، وأنه لـم يفعل ما فعل ارتدادًا عن دينه ولا رضا بالكفر بعد الإسـلام، فقال ﷺ - وهو المؤيد بالوحي مـن عند الله - لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيرًا»، وهذا قول حاسم في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه وعدم نفاقه.

ثـم تذكر رواية الحديث أن النبي ﷺ رد على عمر قوله مرة ثانية بقوله ﷺ: «أتقتل رجلًا من أهل بدر، وما يدريك لعل الله

اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟»، وهنا فقط تدمع عين عمر ويقول: الله ورسوله أعلم، فكيف يترك النبي ﷺ قوله الحاسم في قبول قول حاطب واعتذاره عما بدر منه، وقوله لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» وهو قاطع لا يحتمل التأويل في إثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه، ويعدل ﷺ عن هذا القول الصريح إلى ذكر ميزة لأهل بدر تفضَّل الله بها عليهم رفعًا لشأنهم، وهي غفران ذنوبهم، وهذا لا يعدو أن يكون خصيصة لأهل بدر، وحاطب كان أحدهم، بل كان من مقدميهم بمواقفه، فلم يذكرها ﷺ احتجاجًا لإثبات صحة إيمان حاطب وإسلامه، لأن الاحتجاج لذلك حسم بقول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيرًا»، وهذا هو موقف سفح الدمع، ورد العلم لله ورسوله، فهلا دمعت عين عمر رضي الله عنه، ورد العلم لله ورسوله آنئذ؟

وقد حاول ابن حجر أن يدفع الإشكال المشكل بتأويل موقف عمر وكلامه بما لا يدخل في صميم الموضوع فقال: وإنما قال عمر: «دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق» الذي أوردته الرواية بحرف (الفاء) التعقيبية عقب قول رسول الله ﷺ في قبول اعتذار حاطب عن صنيعه الذي صنعه، وتصديقًا له فيما قال في اعتذاره مخاطبًا أصحابه بتبرئة حاطب عما يغمز إيمانه، بل يدخله في مضايق النفاق، إذ قال لهم: «أما إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيرًا» - لما كان عند

عمـر من القوة في الدين وبغـض المنافقين، فظن أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ من إخفاء مسـيره عن قريش، وحرصه على عـدم وصول خبره إليهـم، وبعثه جماعة علـى الطريق حتى لا يبلغهـم الخبـر، وظهور هذا بيـن الصحابة ممـا لا يخفى على حاطب رضي الله عنهم أجمعين.

فلـذا ظـن عمر أنه اسـتحق القتـل، لكنه لم يجـزم بذلك، فلذلـك اسـتأذن في قتلـه، فلو جزم لمـا اسـتأذن وأطلق عليه منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر.

وهذا كلام ضعيف جدًا، لا يدفع الإشـكال، لأن عمر رضي الله عنه كغيره من أعلياء الصحابة وكبرائهم يجب أن يكون بين يدي رسـول الله ﷺ سـامعًا مطيعًا بعد أن يسمع من النبي ﷺ القول القاطع في تصديق حاطب وقبول اعتذاره، إذ ليس له من الأمر شـيء بعد أمر رسول الله ﷺ لأنه ليس لأحد قول مع قول رسـول الله ﷺ، والمؤمنـون جميعهم منهيون عـن التقدم بين يدي رسـول الله ﷺ بالقـول والفعل، كما هـو صريح قول الله تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١)

قال ابن المنير في انتصافه: ابتدأ السـورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهي إلى الله ورسـوله متقدماً على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص.

أمـا قوة الدين عند عمر، وبغضه المنافقين فلا مدخل له في موضـوع الإشـكال، لأن وجود النبي ﷺ يأبـى أن يكون لأحد قـط قول مع قوله مهما كانت قوة دينـه، وأما بغضه للمنافقين فهـذا شـأن جميع المؤمنيـن إذا وقفوا على نفـاق منافق، وهو لا يجيـز قتلهـم بنفاقهم، ولـم يثبت أن النبـي ﷺ قتل منافقًا لنفاقـه، وكان ﷺ أشـد بغضًـا للمنافقيـن من عمـر وغيره، ولكن الله لم يأذن له ﷺ في قتلهم مع فظاعة فجورهم وبشـاعة جرائمهم، فلا وجه لإدخال قوة دين عمر وبغضه للمنافقين في دفع الإشكال.

وعندنا أن هذا الموقف من عمر رضي الله عنه - إذا استقامت الروايـة على أسـلوبها فـي تعقيب قول عمر رضـي الله عنه: يا رسـول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافـق، لقول النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» بحرف الفاء المفيدة للترتيب والتعقيب، ممـا يـدل على أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسـول الله، دعني أضـرب عنـق هـذا المنافق كما هـو صريح روايـة البخاري في بـاب غزوة الفتح، وما بعـث حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغـزو النبي ﷺ من حديث علي، قال في حكاية دفاع حاطب عن نفسـه، ولـم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسـلام، فقال رسـول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» فقال عمر يا رسـول الله: دعنـي أضرب عنق هـذا المنافق، فتعقيب

عمر على قول الرسـول ﷺ : «أما إنه قد صدقكم» بهذا القول فيـه ما فيه، لأنه قد يحمله من لم يكن مطمئن الإِيمان على أنه رد لقول رسول الله ﷺ .

فموقـف عمر علـى ظاهر الروايـة في أسـلوبها الذي جعل قـول عمر تعقيبًا على قول رسـول الله ﷺ عسـر التأويل جدًا، والطريقـة التـي حاولها ابـن حجر في الإِجابة عـن قول عمر لا تدخل في صميم الموضوع.

ولو أن ابن حجر قال: إن هذا الموقف يمثل طرفًا من موقف عمـر في الحديبية، لكان في قوله اعتـذار عن عمر وموقفه، لا دفعَ لإِشـكاله وإجابـةً عنه، لأن عمر رضي الله عنه اشـتد عليه أمر هدنة الحديبية وشـروط معاهدتها وتحير في الأمر، بل قد اعترف بعظم خطئه بعد أن انكشف الغطاء عنه ببركة النبي ﷺ وبركـة الصديق أبي بكر رضـي الله عنه، وقال: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قط.

وروى عنـه البـزار أنه قال: اتهِمُوا الـرأي على الدين، فلقد رأيتنـي أرد أمر رسـول الله ﷺ وما أَلَوْتُ عـن الحق[٣]، فرضي رسـول الله ﷺ وأبيـت، حتـى قـال: «يـا عمر ترانـي رضيت وتأبى؟»

وفـي حديث ابن عبـاس عند الواحدي أن عمـر قال يومئذ:

---

(٣) المعنى: ما قصرت عن الحق. (المجلة)

لقــد أعتقت بســبب ذلك رقابًــا ، وصمت دهــرًا ، حتى قال : ما شككت منذ أسلمت إلا هذه الساعة .

وهذا الشك ـ إذا صحت الرواية ـ ليس شكًا في أصل العقيدة الإيمانية ، ولكنه ظن أن رسول الله ﷺ صنع ما صنع في معاهدة الحديبيــة باجتهــاد منــه ﷺ ، لا بوحــي مــن الله ، والشــك في الاجتهاد لا يُســلم إلى الشــك في العقيــدة الإيمانية ، وصاحبه مجتهد مأجور .

وأقصى ما يؤخذ على عمر رضي الله عنه أنه لم يبادر بالقبول والاطمئنان والتســليم ، كما بادر أبــو بكر الصديق – رضي الله عنهمــا – والصديق منذ كان الإيمان بالله ورســوله كان أرســخ إيمانًــا وأعمــق يقينًا ، وكان عمر يعرف لــه ذلك ، ولهذا ذهب إليه وهو في قمة حيرته واشتداد الأمر عليه ، يسأله بعد أن سأل رســول الله ﷺ ، فكان رد الصديق عليه موافقًا لفظًا ومعنى لما أجابه به رســول الله ﷺ ، وزاده فقال له : فاستمســك بغرزه فإن الله لا يضيعــه[٤] ، فدخــل اليقين إلى قلب عمــر فملأه ، ورضي وأناب وحدَّث عن نفسه فقال : ما زلت أتصدق وأصوم ، وأصلي ، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي حتى رجوت خيرًا .

ومعلــوم أن موقــف الحديبية كان أثقل في محنته وأشــد في بلائــه على جمهور الصحابة رضــي الله عنهم من موقف حاطب

(٤) الغَرَز للبعير مثل ركاب السرج للدابة. والمعنى اتّبعه ولا تفارقه. (المجلة)

بن أبـي بلتعة وكتابه إلـى قريش، وتوبته واعتـذاره، وتصديق النبي ﷺ له: فإن قوة دين عمر وبغضه المنافقين مما يقبل في عـذره لموقفـه هناك، فإن ذلك هنا بعيد عـن القبول إلا بتأويل متعسف.

ولعمـر رضي الله عنه مواقف في شـدته وقوة دينه لا يسـوغ الاعتـذار بها عنه إلا مع الاعتـراف بأنه رضي الله عنه كغيره من الثوابـت في منابت الإيمـان عرضة للخطأ الذي قـد تدفع إليه هـذه الطبيعة وقوة الدين، وكراهية الحيدة عن جادة الحق، فلا يضـره ذلـك ولا ينقص من قـوة دينه أن يقع منـه خطأ يلاحقه بالندم وصالح العمل.

هـذا يمكن أن يكون اعتذارًا عن موقـف عمر رضي الله عنه إذا ثبـت أن الرواية وقعت أحداثها كما يدل عليه أسـلوبها من تعقيـب قول عمر لقول رسـول الله ﷺ، لكنه اعتـذار لا يدفع الإشـكال كما زعم ابن حجر، ولا يصلح جوابًا عن موقف عمر وقوله: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

وقـول ابن حجر: وأطلق ـ أي عمر عليـه ـ أي على حاطب ـ منافقًـا لكونـه أبطن خلاف ما أظهر، لا يخلـو عن ضعف، لأن النفاق الشـرعي وهـو المعروف عنـد الإطلاق بيـن المجتمع المسلم في صدر الإسلام إنما هو إبطان الكفر وإظهار الإسلام، ولم يعرف بالعموم في المبطن والمظهر إلا بعد عهد السـلف،

والمعنى الخاص بالنفاق الشرعي هو الذي أراده عمر، لأنه جعله سببًا لقتله، لظنه ارتداده عن الإسلام، وأما المعنى العام في إبطان خلاف ما أظهر فلا يقتل به، إلا إذا قارنه سبب يوجب القتل، وهذا عرف بعد السلف بالزندقة.

ومما يحتمل في الرواية، ويندفع به الإشكال، ولا يحتاج معه إلى اعتذار عن موقف عمر رضي الله عنه أنه قال مندفعًا بقوة دينه، وبغضه للمنافقين، لأن تصرفه إذا صح هذا الاحتمال يكون تصرفًا إيمانيًا، يوجب عليه أن يقول للرسول ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق الذي كشف عن باطنه بسوء فعله.

ذلك أن الاحتمال قائم بأن قول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق لم يكن - كما هو ظاهر في الرواية - تعقيبًا على قول رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم» وإنما كان قبل أن يعلم أن رسول الله ﷺ قال هذا القول ليحسم به قصة حاطب في مشهد من أصحابه حتى لا يغمزوه في إيمانه، وليس في الرواية ما يثبت أن عمر رضي الله عنه كان حاضرًا في وقت سؤال النبي ﷺ حاطبًا عن صنيعه، وعن الحامل له على ذلك، وليس فيها ما يثبت أنه سمع دفاع حاطب عن نفسه، وسمع قول النبي ﷺ لأصحابه: «أما إنه قد صدقكم» ويوصيهم بأن لا يقولوا له إلا خيرًا.

ولما حضر عمر رضي الله عنه وسمع ممن كان شاهدًا للقصة ما كان من حاطب، ولم يسمع ما كان من رسول الله قال ما قال لرسول الله ﷺ مندفعًا بقوة دينه وبغضه المنافقين، ولم يقله لتصديق النبي ﷺ حاطبًا فيما أخبره به في اعتذاره، وحاشا عمر رضي الله عنه أن يرد قولًا لرسول الله ﷺ يسمعه منه ثم لا يبالي بإطراح هذا القول، ويستأذن في فعل ينقضه ويرده.

ويبقى بعد ذلك إيراد الروايةِ قولَ عمر رضي الله عنه بصيغة التعقيب على تصديق النبي ﷺ حاطبًا في اعتذاره، وهذا سهل الدفع عند من يعرف أن روايات الحديث وصل إلينا أكثرها مروية بالمعنى، والرواية بالمعنى قد يدخلها كثيرًا تصرف الرواة في التعبير عن المعنى المقصود، وقد قبل العلماء هذا النحو من التصرف في ألفاظ الحديث ما دام لم يخرج عن المقصود.

في القرآن الحكيم القول الفصل في قضية حاطب

والقـول الفصل فـي هذا ما جاء فـي القـرآن الحكيم، ففي حديـث البخاري المروي في المغازي، والتفسـير والجهاد أنه قال بعد قوله: «اعملوا ما شـئتم فقد غفـرت لكم»، فأنزل الله السورة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

(الممتحنة: ١)

وهـذا نص قاطع في إثبات صحة إيمان حاطب ويقينه، وأنه لم ينافق بما صنع لأن الخطاب في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾

صريـح فـي أن المخاطبين مؤمنـون إيمانًا لم يَشُـبْه نفاق، وحاطب داخل فـي هؤلاء المخاطبين دخـولًا أولويا، إذ كانت قصتـه سـبب نزول الآيات، وإذا كان لا قـول لأحد قط مع قول رسـول الله ﷺ، فمن البداهـة أن لا يكون لأحد من المخلوقين قول مع قول الله تعالى.

وقد كانت هذه الآيات الأولى من هذه السورة دروسًا تربوية للمجتمع المسلم، ومنهجًا عمليًا في حياته، يبقى معهم حيًا ما بقي القرآن الكريم هاديًا لهم، ومرجعًا لأمور حياتهم.

وقد ساق الزمخشري قصة حاطب في أول تفسيره للسورة مساقًا متسقًا موجزًا جامعًا فقال: روي أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهز للفتح، فقال لها: «أمسلمةً جئت»؟ قالت لا، قال «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا، قال: «فم جاء بك؟» قالت: كنتم الأهل والموالي والعشيرة، وقد ذهبت الموالي -تعني قتلوا يوم بدر- فاحتجت حاجة شديدة، فحث عليها بني عبد المطلب، فكسوها وحملوها وزودوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير، وكساها بردًا، واستحملها كتابًا إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: «اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم» فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ عليًا، وعمارًا، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد، وكانوا فرسانًا، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها».

وأدركوها، فجحدت، وحلفت، فهموا بالرجوع فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله، وسل سيفه وقال:

أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك، فأخرجته من عقاص شعرها.

فاستحضر رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: وما حملك عليه؟» فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، وفي رواية، كنت عزيزًا فيهم، أي غريبًا، ولم أكن من أنفسهم، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم ومواليهم غيري، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئًا فصدقه رسول الله ﷺ، وقبل عذره فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، فنزلت.

وذكر الزمخشري عمر في الذين أرسلوا إلى الظعينة لأخذ الكتاب لم نره لغيره، فإذا صح وجوده معهم أمكن حمل قوله: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق أنه قاله بمجرد عودة المبعوثين إلى رسول الله ﷺ وقبل أن يسمع اعتذار حاطب.

بدء مسير رسول الله ﷺ إلى مكة

كان رسول الله ﷺ قد جعل من مسيره إلى مكة في جيش كثيف العدد، مجهز بأقوى عدة من السلاح والرجال والمؤن، وسائر أدوات الحرب، - مسير وفاء لحلفائه الخزاعيين، وإرعاب مرهب لقريش، ليتقي بذلك إشعال حرب مدمرة تفنى فيها بقية قريش.

فهو ﷺ لم يكد يعلن الخبر ويتعرفه الناس بعد أن أتم جهازه، وتجهز الناس حتى تجمع حوله من المهاجرين والأنصار المقيمين في المدينة المنورة عشرة آلاف مقاتل بأدواتهم الحربية ومؤنهم ومراكبهم من الخيل والإبل، كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري، ثم أرسل ﷺ إلى من كان من القبائل المسلمة حول المدينة فتلاحق منهم بالجيش ألفان، كان مجموع من سار بهم رسول الله ﷺ إلى مكة اثنا عشر ألفًا من المجاهدين كما رواه الحاكم في الإكليل، والنيسابوري في كتابه شرف المصطفى، وفي مرسل عروة عند ابن إسحق وابن عائد: ثم خرج ﷺ في اثني عشر ألفًا من المهاجرين والأنصار، وأسلم، ومزينة، وجهينة، وغفار، وسليم.

وكان خروجه ﷺ من المدينة المنورة في رمضان، واختلفت الروايات اختلافًا متباعد الجوانب في تحديد يوم خروجه، ولكن الاتفاق قائم على أن خروجه ﷺ كان وهو صائم، والناس معه صائمون حتى بلغ الكديد، وهو مكان بين

قديـد وعسـفان، أفطر ﷺ لأنـه بلغه أن الناس قد شـق عليهم الصيـام وقيل لـه: إن الناس ينظرون فيما فعلت، فلما اسـتوى علـى راحلتـه بعد العصر دعا بإِناء من مـاء، فوضعه على راحته ليـراه الناس فشـرب فأفطر، ثم ناوله رجلًا إلى جنبه فشـرب، كما رواه مسلم والترمذي من حديث جابر رضي الله عنه.

وفـي حديث ابـن عباس مـن طريـق عكرمة عنـد البخاري أنـه ﷺ دعـا بإِناء من لبـن أو ماء، فوضعه علـى راحته فأفطر، وأفطروا، ولم يزل ﷺ مفطرًا حتى انسلخ الشهر.

وفي حديث جابر المتقدم من رواية مسلم والترمذي أنه ﷺ لمـا خرج قيـل له بعد ذلـك: إن بعض الناس صـام فقال ﷺ: (أولئك العصاة).

وروى الشيخان أن النبي ﷺ رأى في سفره زحامًا ورجلًا قد ظُلِّل عليـه فقال: «وما هذا»؟ قالـوا: صائم، فقال ﷺ: «ليس من البر الصيام في السفر».

وروى مسـلم عـن أبي سـعيد الخدري رضـي الله عنه، قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن صيام، فقال: «إنكم دنوتم من عدوكـم، والفطر أقـوى لكم» فكانت رخصـة، فمنا من صام، ومنا من أفطر، ثم نزلنا منزلا آخر، فقال ﷺ: «إنكم مصبِّحون عدوكم، فالفطر أقوى لكم فافطروا» فكانت عزيمة.

ولما أخذ ﷺ في المسير بجيشه وهو على أتم أهبة عقد الألوية والرايـات ودفعهـا إلى قـادة القبائل وزعمـاء أبطـال الجهاد، ولم

يزل ﷺ يسير بكتائبه حتى بلغ مرّ الظهران ـ وهو مكان قريب من مكة ـ أمر الناس أن يوقدوا عشرة آلاف نار، ليزيد من إرعاب قريش وإرهابها، وهي حائرة لا تعرف من حركاته ﷺ شيئًا، تعيش مغتمة خائفة، يكاد يوبقها الوجل والفرق خشـية أن يغزوهم والسيف قد أفناهم، ورَعْبَلَت المعارك في الغزوات قواهم(٥)، فلم يبق لهم منها إلا ما لا قوام له أمام أنفاس جند الله وعزائمهم.

ولـم يجدوا لهم ملجأ إلا أن يعودوا يسـتنجدون بداهيتهم، سـيد البطحاء، أبي سـفيان بـن حرب وهو يتهـاوى من الفزع والهلـع، ولم يكفهم ما باء به من السـخطة والفشـل والخزي والخـذلان حين بعثوه قبـل ذلك ليجدد عهـد الحديبية ويزيد فـي مدة الهدنة، فقد لقي فـي ذلك البعث من الذلة والمهانة ما لاحقـه في مجاهـره ومكامنه، ولم يترك لـه مكانًا يتنفس فيه، ولكـن داهية قريش الأشـمط، فقد كلَّ ذلك ولقـي عوضًا عنه ما لقي من هند في سـاعةٍ يتكاذب فيهـا المتغاضبون، وقريش في مجالسـها وبيوتها تمسـك بأنفاسـها، وهي لا تدري إلا ما ظهـر لها من انتفاخ العنجهية وتورم البأو الأجوف(٦)، والغرور المسـتكبر، فبعثت داهيتها أبا سـفيان مرة أخرى إلى رسـول الله ﷺ ليأخـذ لها منه الأمان على أنفسـها وأموالها وأغراضها متعززة بتراث جاهليتها المسلوب.

---

(٥) رعبلتهم المعارك: مزقتهم. (المجلة)

(٦) البأو: التكبر. (المجلة)

ذلة وهوان بعد العزة والطغيان

واخزياه؟! قريش بهيلها وهيلمانها، وعنجهيتها وغرورها، وبأوها واستكبارها في الأرض، قريش التي أبت وقت شموخها وقوتها الظالمة أن تقبل هدى الله الذي جاءها به رجل من أنْفَسها وأنفُسها، تعلم صدقه وأمانته، ومدخله ومخرجه، وما كان عليه من مكارم الأخلاق، وسواء السريرة منذ نشأته بينها، وأبت أن تترك من قِبل هذا الهدى المنير آمنا في سربه، أمينًا على دينه وعقيدته، فآذت طلائع الإيمان وصبت عليهم البلاء صبًا وهم صابرون محتسبون، يتأسون برسول الله ﷺ فيما يلقى من صور الأذى وفجور المحن والكوارث، حتى أخرجته وأخرجت الذين آمنوا برسالته وهداه من ديارهم وأموالهم وعشائرهم مهاجرين إلى دار الأمن والإيمان، ومتبوأ اليقين والإسلام.

قريش هذه تأتي اليوم ذليلة مفزعة مرعوبة، خائفة منتفضة تطلب من مخذولها – سيد البطحاء أبي سفيان بن حرب، الذي عرفته في دهيه ومداهناته، ولفه ودورانه في قيادة عيرها والفرار بها، ولم تعرفه قط في بطولة معركة إلا مخدوعًا بسحر أخبث لعين، حيي بن أخطب فرعون فراعنة اليهود في تجمعات الخندق والفرار بها مهزومًا مدحورًا ـ أن يستأمن محمدًا ﷺ، وهي لا تنسى مواقف طغاتها معه ومع أصحابه، حين أخرجوهم من ديارهم إلى غربة لا يؤنسهم فيها إلا إيمانهم وما وجدوه في

مهجرهم من إخاء وإيثار، ومحبة وبذل للمكارم.

وخرج مخذول قريش، سيد بطحائها ومعه حكيم بن حزام، وبديل ابن ورقاء الخزاعي ليأخذ لقريشه أمانًا من محمد ﷺ، فوجد الطريق مقفلة في وجهه لا يمر فيها إلا من كان حاملًا جواز مرور مختوم بخاتم أمير الأنقاب.

ووقف المسير بداهية قريش وصاحبيه عند مر الظهران، فلما رأوا عسكر رسول الله ﷺ في أهبته الحربية الكاملة، وكثافة جنده أفزعهم ما رأوا، وأرعبهم كثرة النيران التي أوقدها عسكر المسلمين بأمر رسول الله ﷺ التي كانت كأنها نيران عرفة، وهي أعظم نيران عرفتها الجاهلية الجاهلة، فقال داهية قريش أبو سفيان مرعوبًا مفزعًا لصاحبيه حكيم وبديل: ما هذه النيران، والله لكأنها نيران عرفة!! فقال بديل بن ورقاء: هذه نيران بني عمرو، يعني نيران خزاعة، وبينا أبو سفيان وحكيم وبديل يتقاولون رآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوهم.

وعند ابن أبي شيبة من مرسل أبي سلمة: وكان حرس رسول الله ﷺ نفرا من الأنصار وكان عمر بن الخطاب عليهم تلك الليلة، فجاءوا بهم، فقالوا: جئناك بنفر أخذناهم من أهل مكة، فقال عمر وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، قالوا: والله قد أتيناك بأبي سفيان، فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح فغدا به عمر على رسول الله ﷺ،

واستسلم أبو سفيان ذليلًا بين يدي رسول الله ﷺ .

وفي رواية أن العباس بن عبدالمطلب ـ وكان قد أسلم قديمًا ـ فيما تقول بعض الروايات ـ وكان يكتم إسلامه لمصلحة المسلمين الذين بقوا في مكة ـ لقيهم فأجارهم وأدخلهم على رسول الله ﷺ ، فأسلم بديل بن ورقاء ، وحكيم بن حزام ، وتأخر إسلام أبي سفيان ، فتركوه يرجع إلى قريش ليخبرهم بما رأى وسمع ، فلا ترتفع رءوسهم أمام كتائب الإسلام ، ويتحقق المقصد الأسنى لرسول الله ﷺ في عدم نشوب حرب بينه وبين قريش .

حبس أبي سفيان عند مضيق الجبل بإشارة الصديق ليرى قوة المسلمين

فقال أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- كما في مرسل أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن عند ابن أبي شيبة - لما ولّى أبو سفيان: يا رسول الله لو أمرت بأبي سفيان فحبس على الطريق؟ وفي مغازي موسى بن عقبة أن العباس قال للنبي ﷺ: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه حتى يرى جنود الله، ففعل، فقال أبو سفيان: أغدرًا يا بني هاشم؟ قال العباس لا، ولكن لي إليك حاجة، فتصبح فتنظر إلى جنود الله وما أعد الله للمشركين، وذكر الواقدي أن العباس قال لأبي سفيان: إن أهل النبوة لا يغدرون.

وقال النبي ﷺ للعباس: احبسه عند خطم الجبل، أي مضيقه ليرى كتائب المجاهدين، ويرى أهبتهم، فلا يفوته رؤية أحد من جنود الله، ولا يفوته شيء من أهبتهم، ليزداد رعبه، ويخبر قومه بما رأى، فلا تُرفع لهم رأس في النهوض للقتال.

فحبسه العباس حيث قال له رسول الله ﷺ حتى أصبح الناس، وقام قائم الحق ينادي بالأذان لصلاة الصبح، فأجابه العسكر بأصوات مدوية، ففزع داهية قريش أبو سفيان فزعًا شديدًا، تزايلت منه مفاصله، وتفككت روابط أعضائه، وأخذه الدهش والذهول فلم يدر ماذا يقول، وماذا يفعل، ثم قال للعباس: ما يصنع هؤلاء؟ قال العباس: الصلاة.

وعنـد ابـن أبي شـيبة : ثار المسـلمون إلى طهورهـم ، فقال أبو سـفيان للعباس : ما للناس ؟ أمروا بشـيء ؟ قال العباس : لا ، ولكنهـم قاموا للصلاة ، فذهـب العباس به إلى مصلى النبي ﷺ بالناس ، فلما رأى أبو سفيان اقتداء جموع المسلمين به ﷺ في الصلاة قال : ما رأيت كاليوم طاعة قوم ، جمعهم من هنا وها هنا ولا فـارس الأكارم ، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له ، يا أبا الفضـل أصبح ابن أخيك والله عظيـم الملك ، فقال العباس : إنه ليس بملك ، ولكنها النبوة فقال أبو سـفيان ـ والرعب قد اقتلع قلبه من بين أضالعه ـ أَوَذاك ! وهكذا كان إيمان داهية قريش .

ولمـا فـرغ ﷺ من صلاتـه بأصحابه رأى أبا سـفيان ، فقال لـه : « ويحـك يا أبا سـفيان ؟ ألم يأن لـك أن تعلـم أن لا إله إلا الله ؟ » فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شـيئًا . وزاد الواقدي أن أبا سـفيان قال : لقد استنصرت إلهي ، واسـتنصرت إلهك ، فوالله ما لقيتك مـن مرة إلا نصرت علي ، فلو كان إلهي محقًا وإلهك مبطلًا لقد غلبتك .

ثم قال له رسول الله ﷺ : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسـول الله ؟ » فقال أبو سـفيان : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمـك وأكرمـك ، وأوصلك أما هذه ففي النفس منها شـيء ، فقال العباس –رضي الله عنه– لمخذول قريش وسـيد بطحائها وهو يرى تأبيه عن الإقرار برسـالة محمد ﷺ : ويحك أسـلم ،

واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . . .

وقد استكشف العباس- رضي الله عنه- ما في دخيلة سيد بطحاء قريش أبي سفيان بن حرب من عناد وتأب متغطرس عن الإذعان بالإسلام وقبول هدايته، وخلع مواريث الجاهلية، وتعاص عن الإيمان برسالة رسول الله ﷺ[٧]، فسلك به منعرجات مواريثه الجاهلية ليستنزله من علياء عنجهيته لينقذه من براثن الدهي والمداهنة، ويجعله على مشارف الجادة ليدخله في رياض الإسلام، والعباس -رضي الله عنه- أعرف بقريش ومن بقي فيها من ذوي الزعامات، وكان يخشى على أبي سفيان – إذ لمح نهزة – أن يرتد.

فقال العباس -رضي الله عنه-: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له، فقال ﷺ – وهو يعلم طبيعة قريش وطبيعة زعاماتها – : (نعم).

وعند ابن أبي شيبة أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب السماع والشرف، فقال ﷺ : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال أبو سفيان: وما تسع داري؟ فقال ﷺ : «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال أبو سفيان: وما يسع المسجد؟ فقال ﷺ : «ومن أغلق بابه عليه فهو آمن»، فقال أبو سفيان: هذه واسعة.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف إلى قومه بعد أن رأى بعين

(٧) التعاصي عن كذا: الامتناع عنه. (المجلة)

بصـره كثافـة جند الله وحـرد كتائـب المجاهديـن[٨]، قال له العبـاس: النجـاء إلى قومك، فأسـرع إلى مكة حتـى إذا جاءها صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسـلموا تسلموا، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا له: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ فقال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، وقالت: اقتلوا الحميت الدسـم الأحمس[٩]، قبح من طليعة قوم، فقال أبو سفيان لقومه: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فقد جاء محمد بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد.

وإنما حذر أبو سفيان قومه هذا التحذير الشديد المرعب خوفًا عليهم أن تطأهم كتائب الفتح، فينالهم من القتل والدمار ما لا قبل لهم برده، والوقوف أمامه؛ لأنه رأى من كثافة جيش الجهاد وعدته وهو محبوس عند مضيق الجبل شيئًا أذهله وأفزعه على قومه.

وكان رسـول الله ﷺ - بعد أن أمر العباس -رضي الله عنه- بحبـس أبي سـفيان عند خطـم الجبل ليرى جنـد الله وأهبتهم للفتح - أمر مناديًا ينادي: «لتصبح كل قبيلة عند راية صاحبها، وتظهر ما معها من الأداة والعدة».

---

(٨) الحـرد الجمع ومنه قوله تعـالى ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ (القلم: ٢٥) أي على جمع الثمار. فمعنى قوله (حرد كتائب المجاهدين) معناه اجتماعها. (المجلة)

(٩) الحميت وعاء السمن والمراد البدين. (المجلة)

إظهار قوة جيش الإسلام لتحقيق إرعاب قريش دون حرب

وأصبح الناس على ظهر، وقدم بين يدي رسول الله ﷺ ، ومرت الكتائب بألويتها وقادتها، والكتائب على راياتها، كتيبة كتيبة على أبي سفيان - وهو يراها منتفضًا مرعودًا مرعوبًا - بألويتها وقادتها وراياتها وعدتها وأداتها تحقيقًا لأمر رسول الله ﷺ ، فجعل أبو سفيان يسأل العباس -رضي الله عنه- عن كل كتيبة، فإذا قيل له هم بنو فلان، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مرت عليه أشجع برجالها وأهبتها فسأل عنهم وأخبر بهم، فقال هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد، فقال له العباس -رضي الله عنه-: أدخل الله تعالى الإسلام في قلوبهم، فهذا فضل الله. ثم سأل أبو سفيان العباس عن مرور كتيبة رسول الله ﷺ ، فقال العباس- رضي الله عنه-: لو أتت الكتيبة التي هو فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال، وما ليس لأحد به طاقة، فقال أبو سفيان ومن له بهؤلاء طاقة؟ وجعلت الكتائب تمر، كل ذلك يقول أبو سفيان: ما مر محمد؟ فيقول العباس -رضي الله عنه-: لا، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، وهم في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق - أي سواد العين - قال أبو سفيان: من هذه؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد

بن عبادة، معه رايتهم، فقال سعد بن عبادة لما رأى أبا سفيان وهو يمر بالراية النبوية: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار، ومعنى هذه الكلمة من أبي سفيان التي ارتمى بها في أحضان التزلف إلى العباس -رضي الله عنه- أنه لشدة ما داخله من الرعب والخوف على نفسه وقومه فهم من كلمة سعد بن عبادة أنه يتوعده، ويتوعد قومه ليوقع بهم جزاء ما قدمت أيديهم وألسنتهم من فجور في إيذاء رسول الله ﷺ، وإيذاء أصحابه الذين استضعفوا في مكة قبل الهجرة.

فقد كذبوه ﷺ، وسخروا منه، واستهزءوا به، وتقولوا عليه، وقاتلوه ووقفوا سدًا أمام رسالته، حتى أخرجوه من بلده حرم الله ومأمنه، وهي أحب بلاد الله إليه.

وآذوا أصحابه بالقول والفعل، وأنزلوا بهم من المحن والبلاء ما لو نزل بالشوامخ الرواسي لدكها، فلجأ إلى العباس -رضي الله عنه- يستنهض همته، ويحرك في نفسه عوامل مروءته ومكارم أخلاقه، ويحتمي به وبمكانته عند رسول الله ﷺ، ومحبته له، وإعظامه له، وقبول شفاعته.

وكأن أبا سفيان يقول للعباس: هذا يومك الذي يلزمك فيه حفظي وحمايتي وحفظ قومك وبيضتك لمكانك من

رسـول الله ﷺ ، ومنزلتك عنده، ومحبته لـك وإقباله عليك، وقبـول مشـورتك مـن أن ينالنـي وأنا معـك مكـروه، أو ينال قومك تسلط الغزاة عليهم، ليستبيحوا حرماتهم، ويستأصلوا شأفتهم.

وعند ابن إسـحاق أن كلمة سعد بن عبادة المتوعدة سمعها عثمـان بن عفان، أو عبـد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهما، فقال من سـمعها منهما: يا رسول الله، ما نأمن أن تكون لسعد في قريش صولة، وقيل: إن الذي سـمعها وقال لرسول الله ﷺ هذه المقالة المسـتعطفة لرسـول الله ﷺ هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، واسـتبعد ذلك ابن حجر بأن عمر كان ظاهر العداوة لهم، وهذا لا يبعد عن الصواب.

وفـي روايـة أن أبـا سـفيان قال للنبـي ﷺ لما حـاذاه وهو يمـر في كتيبتـه الخضراء: أمـرت بقتل قومك؟ فقال رسـول الله ﷺ: «لا»، فذكر أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة، وناشده الله والرحـم في قومه، وقال له في مناشـدته: إنـك أبر الناس، وأرحمهـم وأوصلهـم، فقال ﷺ: «يـا أبا سـفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله تعالى قريشًـا» وأرسل ﷺ إلى سعد بن عبـادة، فأخذ الراية منه، فدفعها إلـى ابنه قيس، وهذا أصح ما قيل في الروايات، إذ رأى ﷺ بهذا التصرف السياسي الحكيم

أن الراية لم تخرج عن سعد إذ صارت لابنه، وهناك روايات تقول: إن النبي ﷺ بعث إلى سعد عليًا ليأخذ الراية منه، وقال لعلي: «كن أنت الذي تدخل بها» وفي رواية أنه ﷺ أعطاها للزبير -رضي الله عنه- ليدخل بها ويركزها عند الحجون.

ودخلت كتائب الجهاد بثقلها مكة آمنة مطمئنة إلى فضل الله وقوة تأهبها القتالي، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يدخل من كدي بأسفل مكة، ودخل ﷺ بكتيبته الخضراء من كداء بأعلى مكة كما هو الصحيح الذي يدل عليه صراحة حديث عائشة -رضي الله عنها عند البخاري، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة، وما جاء في الروايات غير ذلك يظهر أنه من قبيل الاشتباه على بعض الرواة.

أمر رسول الله ﷺ بالكف عن القتال إلا دفاعًا

وأمـر رسـول الله ﷺ المجاهديـن أن يكفـوا أيديهـم، ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، ولما دخل خالد بن الوليد -رضي الله عنـه- مـن حيث أمره رسـول الله ﷺ لقـي جماعة من فلال قريش الذين استبقاهم الهرب والفرار من السيف، فيهم صفوان بن أميـة، وعكرمة بن أبي جهل، وسـهيل بن عمرو متجمعين ليقاتلـوا كتائـب الفتح، فناوشـوا خالدًا وجنـده الذين كانت رايتهـم فـي يده، وهم بنو سـليم فقتلوا من جند خالد مسـلمة بن الميلاء الجهني، فاضطر خالد -رضي الله عنه- لمدافعتهم بالقتـال، فقتل منهم رجالًا، فانهزموا فرارًا مولين الأدبار، حتى دخلـوا البيوت، وأغلقوا دونهم أبوابهـا، وفرت منهم طوائف إلى أعالي التلال ورءوس الجبال، وتبعهم المسلمون، وأكثروا مـن القتل فيهـم، ورأى ذلك حكيـم بن حزام وأبو سـفيان بن حرب - ولم يكونا مع المقاتلين - فصاح حكيم بن حزام وأبو سـفيان في قومهم وهم يفرون: يا معشـر قريش، علام تقتلون أنفسـكم، مـن دخـل داره فهـو آمن، ومـن وضع سـلاحه فهو آمن.. فجعل المهزومون يسرعون ويقتحمون الدور، ويغلقون أبوابها، ويطرحون السـلاح في الطرقات، فيأخذه المسلمون، ولم يرفع بعد ذلك أحد من قريش رأسه.

ونظـر النبي ﷺ فرأى بارقة السـيوف فقال: «مـا هذا وقد نهيت عن القتال» فقال له أصحابه: نظن أن خالدًا بُدئ بالقتال

وقوتـل فقاتل دفاعًا عن نفســه وجنده، فقــال ﷺ لخالد: «لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدءونا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت، فقال ﷺ : «قضاء الله خير».

وفـي رواية عند الطبراني عن ابـن عباس -رضي الله عنهما، خطـب رسـول الله ﷺ فذكـر حرمـة مكـة، وأن الله أحلهـا لرسوله ﷺ ساعة من النهار، ثم عادت حرمتها، فقيل له ﷺ: هـذا خالد بن الوليد يقتل، فقــال ﷺ : «قم يا فلان فقل لخالد يرفع يده عن القتل» فأتى الرجل خالدًا فقال له إن نبي الله يقول لك: «(اقتل من قدرت عليه) فقتل منهم سـبعين، وجاء الخبر إلى رسـول الله ﷺ، فأرسـل إلى خالد: «ألم أنهك عن القتل؟» فقــال خالد: جاءنـي فلان، فأمرنـي أن أقتل من قـدرت عليه، فأرســل النبـي ﷺ إلى الرجل الـذي كان قد بعثـه لخالد يأمره برفـع يده عن القتل، فقال له: «ألم آمـرك أن تنذر خالدًا» فقال الرجل لرسـول الله ﷺ : أردت أمرًا، فـأراد الله أمرًا، وكان أمر الله فوق أمرك، وما اسـتطعت إلا الذي كان، فسكت النبي ﷺ وما رد عليه.

وهـذه الروايـة صعبـة التأويل جـدًا إذا صحت سـندًا؛ لأنه كيف يعقل أن يبعث رسـول الله ﷺ رجلًا يختـاره، فيقول له: «قم يا فلان» ويسـميه باسمه برسـالة إلى أحد أبطال قادة جند الجهاد - وهو أشهر وأعرف قواد جيش الفتح - برسالة موجزة في عبارتها وأسـلوبها، بينة الهـدف في مقصودها، وهي: «قل

لخالـد فليرفـع يده عن القتـل» فيذهب الرجـل، ويبلغ غير ما أرسـل به إلـى خالد، يبلغـه رسـالة مناقضـة كل المناقضة في ألفاظهـا وأسـلوبها وهدفها لرسـالة رسـول الله ﷺ التي كلفه إبلاغها خالد بن الوليد ليرفع يده عن القتل؟.

ثم كيف يعقل أن ينسـى الرجل المبعوث إلى خالد برسـالة رسول الله ﷺ نص رسـالته ﷺ على إيجازها الذي لا تجاوز به جملـة واحدة، مؤلفة من عدة حـروف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ثم يبلغ خالدًا رسـالة مختلفة لم يقلها النبي ﷺ تزيد في كلماتها على الرسالة المكلف إبلاغها؟.

وإذا أحضـر النبـي ﷺ هذا الرجل وسـأله عما بلغـه إلى خالد ليعرف وجهة نظره فيما بلغه، فيقول له: «ألم آمرك أن تنذر خالدًا» والإِنـذار هو التخويف الشـديد من عواقب المنذر مـن أجله، وهو الاسـتمرار في القتـل، فيقول هـذا الرجل في رده علـى النبي ﷺ متجهمًـا متغاضبًـا جافيًا كأنه يذكر رسـول الله بأمـر فاته؟ فيقول مخاطبًا له ﷺ : أردت أمرًا، وأراد الله أمرًا، وكان أمر الله فوق أمرك.

هـذه الجفوة المتجهمـة المتغاضبة فـي مخاطبة النبي ﷺ وحدها كافية في إسـقاط هذه الرواية عن القبول، وزَعمُ أن هذا الرجـل أنصـاري، وأنه تأول الـكلام لا محل لـه، ولا ينبغي أن يقال، وإلا فأين مكان التأويل؟ أفي رسـالة النبي ﷺ إلى خالد ليرفـع يده عـن القتل، وهي واضحة شـديدة الوضوح، لا إبهام فيها ولا غموض، وهي شديدة الإِيجاز لا تعدو جملة واحدة؟ أم

في كلام هذا الرجل الذي اخترعه فبلغه خالدًا ؟

وكيف يسوغ التأويل باحتمال أن هذا الكلام المخترع الذي بلغه الرجل إلى خالد سبق إلى سمع الرجل فبلغه خالدًا، وقتل خالد بسببه سبعين من قريش ؟ وليس بين كلام النبي ﷺ الذي بعث به هذا الرجل إلى خالد وكلامه المخترع الذي بلغه خالدًا أدنى اشتباه في لفظه ومعناه، فكيف يسبق إلى سمعه نقيض ما بعثه به رسول الله ﷺ ليبلغه إلى خالد ليرفع يده عن القتل ؟

ثم إن رد هذا الرجل الذي قيل إنه أنصاري على سؤال رسول الله ﷺ جاءت الرواية به في أسلوب جاف، متجهم متغضب، يبعد جدًا أن يصدر في مخاطبة رسول الله ﷺ من رجل مؤمن صادق الإيمان، صفي اليقين، يعرف للنبي ﷺ قدره المنيف، ومنزلته من الله تعالى ومكانته في قلوب أمته، ويعلم أن الله تعالى أدب المؤمنين أدبًا خاصًا في مخاطبتهم له ﷺ ، وعلمهم كيف يتحدثون إليه، وكيف يسمعون منه، وكيف يستجيبون لأوامره، رفعًا لقدره ومنزلته فوق أقدار ومنازل جميع خلقه، تشريفًا لمقامه الأشرف بين أصحابه، وأجيال أمته من بعدهم، فقال تعالى يصف خُلَّص أهل الإيمان :

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن

شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (النور : ٦٢ - ٦٣).

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبيًا ورسولًا، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه، وخصه باسمين من أسمائه الحسنى، فجعله رءوفًا رحيمًا بالمؤمنين، وهذا تعظيم لم يكن قط لغيره ﷺ ؛ لأنه تعظيم يرتبط بأصل الإيمان برسالته وهدايته.

قال الزمخشري في كشافه: أراد الله عز وجل أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه

﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾

فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلها كالتشبيب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما، وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرًا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدًا وتشديدًا حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾

وضمنه شيئًا آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدق بصحة الإِيمان، وعرَّض بالمنافقين وتسللهم لواذًا.

والأمر الجامع الذي يجمع له الناس، وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاورٍ في خطب مهم، أو تضامٍ [اجتماع] لإِرهابِ مخالف، وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أنه خطب جليل، لابد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه عليه، ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايتهم، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه، فمن ثمة غلظ عليهم، وضيق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله:

﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾

وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأحسن الأفضل أن لا يحدثوا أنفسهم بالذهاب ولا يستأذنوا فيه.

ثم قال الزمخشري في تفسير قوله جل وعلا:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾

لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمي بعضكم بعضًا، ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا يا محمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع.

وقال القرطبي في معنى قوله تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾

أي عظمـوه وخاطبوه في رفق ولين، وغير تجهم، وروي عن قتادة في تفسيرها: أمرهم أن يشرفوه ويفخموه.

فأين يقع ما جاء في رواية الطبراني منسوبًا إلى الرجل الذي قيل إنه أنصاري، وأن النبي ﷺ اختاره، وسـماه باسمه مبعوثًا إلى خالد ليقول له إن رسـول الله ﷺ يقول لك: «ارفع يدك عن القتـل» فبلَّغ خالدًا رسـالة تناقض رسـالة النبي ﷺ في ألفاظها ومعانيها وهدفها، فلما سـأله رسـول الله ﷺ عن إبلاغه خالدًا ما لم يرسـله به ﷺ تجهم وجفا، وتغاضب وخاطب النبي ﷺ بأسـلوب لم يشـم رائحة التوقير، والتعظيم، وحسـن الأدب، ولطـف القول وليـن الجانب، ورقة الألفـاظ، وخفض الصوت والتواضع مما ينبغي أن يتحلى به كل مؤمن صادق الإيمان.

مـن هذا الأدب الرفيع الـذي أدب الله به المؤمنين جاءت به هاتان الآيتان الكريمتان اللتان أبرز الزمخشري وغيره ما فيهما من تشـريف وتعظيم لرسـول الله ﷺ ، وما جرى مجراهما من آيـات كثيرة في سـور متعددة من سـور القـرآن الكريم، نزلت لتبيـن للمؤمنيـن مقام شـرف رسـول الله ﷺ وعظيـم منزلته عنـد ربه، ممـا يوجب علـى المؤمنين برسـالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم.

وقد سجل الله الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه:

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ راجع إلى رسول الله ﷺ ومعناه: تعظموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة معه والتحدث إليه ومجالسته.

ومن هذا القبيل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

(الحجرات: ٢)

في هذه الآية الكريمة من الحث على التزام أرفع منازل الأدب في مخاطبة رسول الله ﷺ بحيث لا يغمر صوته في جهارته صوت رسول الله ﷺ في محادثته.

والنهي عن الجهر له ﷺ بالقول كجهر بعض المتخاطبين لبعض في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم التي تستدعيها أمور دينهم ودنياهم، قد جعل مخالفته في المخاطبة سببًا لإحباط العمل، وقد يكون هذا الإحباط دون شعور من المخالف للنهي؛ لأنه لم يستحضر في مخاطباته النبي ﷺ ما يجب له من توقير وتعظيم وهيبة تحمل مخاطبه على خفض الصوت، ولين القول، ورقة الألفاظ، وهذا أمر خطير ووعيد شديد لمن يتبصر في أمره، ليكون مستحضرًا بقلبه تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره.

ولهذا أتبع هذه الآية الكريمة بآية امتدح فيها قومًا من ذوي الأدب الرفيع في مخاطبة النبي ﷺ فقال عز شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات: ٣)

فهذا ثناء على الذين اعتصموا بأدب توقير رسول الله ﷺ، وتعظيمه في مخاطباتهم وأحاديثهم في مجالستهم له ﷺ كما تقتضيه (العندية) في قوله: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

ومعنى ذلك أن هؤلاء الصفوة الذين استمسكوا بعواصم الأدب الرفيع مع رسول الله ﷺ فعزروه ووقروه، وعظموه وأظهروا إجلاله وتبجيله إذ يكونون معه ولو لم يكونوا في مخاطبة له.

وللزمخشري نفحات من روعة الأسلوب فسر بها هذه

الآيـات فـي كشـافه رأينا أن نقبسـها منه لما فيها من إحسـان فـي أداء المعنـى القرآنـي الذي يبيـن ما ينبغـي أن يكون عليه المؤمنون من تفخيم شـأن رسول الله ﷺ وتشـريفه بأفضل ما يجب له مـن التوقير والتعظيم، فقال: أعاد النداء عليهم – أي في قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عنـد كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتُروا، ويغفلـوا عن تأملهم ومـا أخذوا به عند حضور مجلس رسـول الله ﷺ مـن الأدب الـذي المحافظة عليه تعـود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلـك لأن فـي إعظـام صاحـب الشـرع إعظام مـا ورد به، ومسـتعظم الحق لا يدعه اسـتعظامه أن يألو عمـلًا بما يحدوه عليه، وارتداعًا بما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله:

﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾

أنـه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الـذي يبلغه بصوتـه، وأن تغضوا منها بحيث يكـون كلامه عاليًا لكلامكـم، وجهـره باهرًا لجهركـم، حتى تكـون ميزته عليكم لائحة، وسـابقته واضحـة، وامتيازه عن جمهوركم كشـية الأبلق

غيـر خـافٍ[١٠]، لا أن تغمروا صوتـه بلفظكم، وتبهـروا منطقه بصخبكم.

وبقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾

أنكـم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نُهيتم عنـه مـن رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغـوا به الجهر الدائر بينكـم، وأن تتعمـدوا في مخاطبتـه القول البيـن المقرب من الهمس الـذي لا يضاهي الجهر، كما تكـون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز شأنه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾

وليس الغرض من النهي عن رفع الصوت الجهر ما يقصد به الاسـتخفاف والاسـتهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسـه والمسـموع من جرسـه غير مناسـب لما يهاب به العظمـاء، ويوقر الكبراء فيتكلف الغض منـه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يسـتبين فيـه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو، فلم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمـس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى الجهـر المنعوت بمماثلة ما قد اعتـادوه منه فيما بينهم، وهو

---

(١٠) الشية: العلامة. (المجلة)

الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها.

ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفرادًا وجماعات الأدب الأكمل مع النبي ﷺ في كل ما يتصل بمخاطبته، والتحدث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيرًا يجلي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له ﷺ بما ميزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته ﷺ في حياته البرزخية كحرمته في حياته الدنيوية.

وقد أجاد ابن حجر فأحسن إذ أسقط ما نسب إلى الرجل من الكلمات الجافية المتجهمة، واقتصر على ذكر قوله لخالد: إن نبي الله يقول لك: «اقتل كل من قدرت عليه» فقتل خالد سبعين، ثم اعتذر الرجل للنبي ﷺ فسكت عنه ﷺ ولم يذكر ابن حجر الكلمات المنسوبة للرجل في اعتذاره للنبي ﷺ وهي موضع النظر - التي أحسن بإسقاطها وعدم ذكرها، وكأن ابن حجر لمح ما فيها مما لا يليق من الجفوة، والتجهم فتركها.

وهذا مسلك جزئي سلكه ابن حجر في كلامه على هذا

الحديث، فأحسن إذ ترك من الكلام ما هو موضع المؤاخذة، ولكن كان يجب على الحافظ ابن حجر أن ينظر في الحديث نظرة شاملة، تبين صحة سنده، واستقامة متنه ومعناه وأسلوبه، ولا عليه أن ينصح بما هو الحق في صحة الحديث سندًا ومتنًا، لا سيما أن المعروف عن كافة الصحابة صادقي الإيمان التفخم بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره إلى درجة تبلغ ذروة التقدير لشرفه ومقامه ورفعة منزلته، فإذا غلب التغضبُ أحدَ مَنْ لم يكن منهم قادرًا على مغالبة طبيعته فلا حرج على من يصرح بغلط من غلط، أو يبين أن الحديث لم تثبت صحته، ولا داعي لبذل الجهد وتحمل المشقة في تأويله تأويلًا متعسفًا.

وإنما أطلنا النفس قليلًا في مناقشة ما جاء في هذا الحديث عند الطبراني- من أسلوب جاف متجهم وكلمات متغضبة نافرة في مخاطبته ﷺ مما يجافي ما يجب له صلوات الله عليه من توقير وتعظيم، وخفض جناح الرقة في الخطاب، لنذكر بما هو واجب مُضَيّق على أمته[11] أفرادًا وجماعات من رفيع الأدب والتفخيم لشأنه، ومحبته محبة تعلو على كل محبة، واتباعه اتباعًا يجعل هوى كل مؤمن تبعًا لما جاء به ﷺ في كل ما يثبت عنه من أحكام وآداب، وتربية، وسلوك اجتماعي يقوم على أكرم مكارم الأخلاق- لنلفت نظر المجتمع المسلم أينما كان

(11) الواجب المضيَّق هو الواجب الذي لا يجوز تأخيره لأن وقته يفوت ويقابله الموسَّع. (المجلة)

منه فرد أو جماعة في أرض الله إلى أن المتحدثين عنه -صلوات الله وسلامه عليه- لا سيما شباب الإسلام- ينبغي أن يكونوا على بصيرة وحذق بما يحوكه الملحدون لهم من نسج الميوعة والانحلال الخلقي، ليخرجوا هذا الشباب من إطار الإسلام إلى الانطلاق الذي يسميه لهم الملحدون تحررًا، وهو في حقيقته انسلال عن الإسلام دون شعور، والله تعالى يقول:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

(الروم: ٤٣)

قال الزمخشري: وقوله ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضار؛ لأن من كان ضاره كفره فقد أحاطت به كل مضرة.

ويقول تبارك وتعالى:

﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

(إبراهيم: ٨)

والذي يظهر لنا من التأمل في جموع الحوادث التي وقعت منذ وطئت قدم رسول الله ﷺ أرض مكة فاتحًا أن القتال الذي حدث إنما هو وقعة واحدة، هي التي جمع فيها الموتورون من سوابق الغزوات الذين جمعوا لفائف من أوباش قريش وأتباعها

ليقاتلوا جيش الفتح، وينقضوا أمان رسول الله ﷺ لأهل مكة عامة، وكان أسبق القواد المجاهدين دخولًا إلى مكة خالد بن الوليد، معه راية بني سليم، فناوشه الأوباش وقادتهم، وكف خالد بن الوليد عن قتالهم ما استطاع، إطاعة لأمر رسول الله ﷺ لعامة قواد جيش الفتح، إذ قال لهم: «أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم».

وقد أطمع هذا الحلم الكريم أولئك الموتورين وأوباشهم، فركبهم الشيطان وزين لهم نقض الأمان وإشعال نار الحرب، وأرادوها موقعة فاصلة، وحملوا على جند خالد حملة مسعورة، وقتلوا من جنده من قتلوا، فكان لا بد له أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتل فلول الموتورين وأوباشهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، أذاقتهم أوجاع الغدر ونقض عهد الأمان، ورأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف وهي تلمع، فقال: «ما هذا؟ وقد نَهيتُ عن القتال؟» فقال له بعض أصحابه: هذا خالد نظن أنه بدئ بالقتال، فكان لا بد له من أن يدفع عن نفسه وجنده، فقاتلهم، فلما جاء خالد قال له رسول الله ﷺ «لم قاتلت؟ وقد نهيتك عن القتال؟» فقال خالد: هم بدأونا بالقتال وقد كففت يدي ما استطعت، فقال ﷺ «قضاء الله خير».

هذا مجمل ما نظن أنه وقع، ولكن الرواة أكثروا من الروايات، وأدخلوا في كل رواية واقعةً مما وصل إليهم من واقعة خالد، وجعلوها وقائع مستقلة أعطوها في رواياتهم

قوائم الوقائع المتعـددة، ولم يثبت لنا من طريق صحيح وقوع معـارك إلا مـا كان من واقعـة خالد التي كانت أصـلًا لما تفرع عنهـا من الوقائـع في الروايـات المختلفـة حتـى أوقفها فرار الموتورين وقادة الأوشـاب، وتجديد الأمان من رسـول الله ﷺ بعد استغاثة أبي سفيان به في قوله: «لا قريش بعد اليوم» فقال النبي ﷺ «مـن دخل داره فهو آمن» وهـذا تجديد للأمان صاح بعده أبوسـفيان وحكيم بن حزام في قومهم: يا معشـر قريش، علام تقتلون أنفسـكم، من دخل داره فهو آمن، فأسـرع الفُرَّار إلـى البيوت يدخلونهـا ويغلقـون أبوابها دونهـم، ويطرحون السلاح في الطرقات.

منزل رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم

وكان رسـول الله ﷺ ينـزل في قبـة ضربت لـه بالحجون، وقيل له ﷺ ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال ﷺ «وهل ترك لنـا عقيل منـزلا» وكان عقيل بـن أبي طالب قبل أن يسـلم قد بـاع منزل النبي ﷺ ومنزل إخوتـه أولاد أبي طالب من الرجال والنسـاء التي كانت لهـم بمكة، فقيل لرسـول الله ﷺ فانزل في بعض بيـوت مكة، غير منازلك، فأبـى ﷺ وقال «لا أدخل البيـوت» وكان ﷺ يأتـي المسـجد لـكل صلاة مـن الحجون وكان أبـو رافع مولى العباس بن عبـد المطلب قد ضرب له قبة بالمسجد من أدم، ومعه أم سلمة وميمونة وذِكْرُ ميمونة هنا هو الغريب، فإنه ﷺ لم يبنِ بها إلا في الطريق بسرف.

وفـي روايـة للبخاري عـن أبي هريـرة من طريق أبي سـلمة أنه ﷺ قال: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف»، وفي رواية أخرى للبخـاري أيضًا: «خيف بني كنانة حيث تقاسـموا على الكفـر» والمقصود الإشـارة إلى تحالف قريـش الظالم الكفور وحصرهم بني هاشـم والمطلب بشعب أبي طالب، وتعاهدهم أن لا يناكحوهـم، ولا يبايعوهـم كما فصلنـا قصة هذا الحصار الفاجر الظلوم في موضعه من أحداث مكة قبل الهجرة.

وإنما اختار رسـول الله ﷺ النـزول في خيف بني كنانة يوم الفتح الأعظـم، فتح البلد الأمين واستسـلام أهلها، ودخولهم في الإِسـلام بين طائع قد تبين له الرشـد من الغـي، وبين كاره

مكره، حاقد مرعوب مفزع يخاف على رأسه أن تزايل مكانها من عنقه- ليتذكر ﷺ ما كان من قريش من فجور، فقدت فيه مشاعر الإنسانية، وكفر شرس وطغيان وثني مجنون، وعنجهية جاهلية واستكبار مغرور، وظلم جهول، وإيذاء للمؤمنين، وليتمثل ﷺ ما بين يديه ﷺ من نعمة الله عليه وعلى أصحابه بإعزاز دينه وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، فيزداد شكرًا لله تعالى على هذه النعمة العظمى، نعمة الفتح الأعظم، فتح مكة بلد الله الحرام، وتطهر الكعبة المشرفة من رجس الشرك ووضر الوثنية[١٢]، وتمكنه ﷺ من دخول بلده المحرم التي جعلها الله حرمًا آمنًا للناس إلى يوم القيامة، ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار، ومن آمن معهم إخوة ترفرف فوق رءوسهم ألوية النصر، وتخفق بين أيديهم رايات الشكر، وهم يرون الذين أخرجوهم بالأمس أذلة مستسلمين يستأمنون رسول الله ﷺ فيؤمنهم، ويتلطف بهم رحمة لهم.

---

(١٢) الوضر: الوسخ. (المجلة)

فرحة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم بالفتح الأعظم

وقد كان ﷺ في دخوله مكة مفعم المشاعر، روي الإحساس، مشرق الوجدان، تبرق أساريره بالفرحة العظمى، وتضيء روحه المشرقة بنور تقدير نعمة الله عليه حق قدرها، وعرفانه فضل الله عليه وعلى مجتمعه المسلم ممثلًا في عامة أصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا هم المفلحين، وكانت فرحة السابقين الأولين من المهاجرين خاصة- الذين رزحوا تحت آلام البلاء في البلد الحرام على أيدى طواغيت الشرك وطغاة الوثنية قبل هجرتهم فصبروا على ما أصابهم، واحتسبوه عند الله، وهم يرجون من الله النصر على أعدائهم من الكافرين- أعظم وأظهر.

وها هو ذا النصر يحفهم وهم يكتنفون راحلة رسول ﷺ وهو صلوات الله عليه فوقها متذللا لله، متواضعًا لعظمته، واضعًا رأسه تخشعًا وعرفانًا بحق شكر الله تعالى على ما أسداه إليه من نعمة الفتح العظمى.

ذكر محمد بن إسحاق عن شيخه عبدالله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجرًا بشقة برد حبرة حمراء، وأن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن

عثنونه- أي لحيته- ليكاد يمس واسطة الرحل. وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- عند البيهقي قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح، وذقنه على رحله متخشعًا. وفي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- عند البيهقي أيضًا عن شيخه أبي عبد الله الحاكم قال: إن رجلًا كلم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال له ﷺ: «هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

وكان من أعظم مواقف الشكر لله تعالى في هذا المقام الحافل بالنعم، ونفحات العطايا الربانية موقفه ﷺ في الامتنان بإطلاق بقايا سيوف المسلمين من مشركي قريش الذين استبقاهم الهرب فرارًا منهزمين أمام كتائب المجاهدين في سوابق الغزوات، بعد أن صاروا أسارى في يده ﷺ وأيدي أصحابه، وهم يظنون كل الظن أنهم سيؤخذون بذنوبهم وجرائرهم، وقد نشف الدم في عروقهم، وتيبست أعصابهم، واصفرت جلودهم من شدة ما كانوا فيه من الخوف الهالع، والرعب المفزع خشية أن يقضي فيهم رسول الله ﷺ بما يستحقونه قضاء يقضي عليهم، أو يسمهم بميسم الذل الأبدي والهوان السرمدي، فيجعلهم عبيدًا وخولًا، يتقاسمهم جند الجهاد الفاتحين، لكنه ﷺ رحمهم ورق لهم، ووقف منهم جميعًا إلا ما استثنى موقف الشكر لله لتزلفهم، وهو ﷺ يقول لهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم،

وقـد قـدرت، فقال ﷺ «إني أقول لكم كما قال أخي يوسـف: لا تثريـب عليكم اليـوم، يغفر الله لكم وهو أرحـم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فخرجوا من المسـجد سـراعًا، وكأنهم أشباح فارقتها أرواحها إلى بيوتهم أو كأنما نشروا من القبور.

هـذا موقف من مواقـف العفو الكريم والصفـح الجميل لم يعرفـه التاريـخ، ولا عـرف مثله فـي النبل والإحسـان ومكارم الأخـلاق، وقفـه رسـول الله ﷺ مع من أسـاءوا إليـه، وكذبوه وسـخروا منـه، وآذوه بالقـول والفعل حتى أخرجـوه من بلده المحرم الآمن مهاجرًا في سبيل أداء رسالته ونشر هداها، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائرهم.

وإذا انضـم إلـى هذا الموقف النبيل الأكـرم مواقفه ﷺ من أفـراد دانت لهم قريش بزعامتها، وكان الشـيطان قد اتخذهم مطايـا لخبائثه وجرائره، فهمَّ بعضُهـم بقاصمة القواصم، مثل أبي سـفيان بن حرب الذي آمن ثم كفر، ثم آمن، ثم ازداد كفرا إذ يوحـي إليه الشـيطان وهو آخذ بمقوده أكثـر من مرة بعد أن أمن، وأمن معه ولأجله قومه، أن يجمع لمقاتلة رسـول الله ﷺ ويأتـي الخيـر بما حدث به نفسـه مـن نقض الأمـان، فيخبره النبـي ﷺ بما حدث به نفسـه، وقـال لـه: «إذن يخزيك الله» فيعفو عنه رسول الله ﷺ ويتركه، فلا يؤاخذه شكرًا لله تعالى.

وروى ابن سـعد عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسـول الله ﷺ خـرج مـن الكعبـة وأبوسـفيان بـن حـرب جالس في

المسجد، فقال أبوسفيان في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﷺ فضرب صدره، وقال: «بالله نغلبك» فقال أبوسفيان: أشهد أنك رسول الله وروى الحاكم وتلميذه البيهقي عن ابن عباس، وابن سعد عن أبي إسحاق السبيعي، قالوا: رأى أبوسفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون على عقبه، فقال: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ وجمعت له جمعًا، فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدره، فقال: «إذن يخزيك الله» فقال أبوسفيان: أتوب إلى الله، وأستغفره، ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك.

قصة فضالة بن الملوح وهمه برسول الله ليغدر به وفضح الله له

وذكر ابن هشام والقسطلاني في مواهبه وابن كثير في بدايته وابن عبد البر في درره أن فضالة بن عمير بن الملوح هَمَّ بقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له ﷺ «أفضالة؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال له النبي ﷺ «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال له: «استغفر الله مما حدثت به نفسك» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلى منه.

وقصة صفوان بن أمية بن خلف، وعكرمة بن أبي جهل معروفة، وهربهما خوفًا على نفسيهما منه ﷺ لما اقترفاه، ولا سيما يوم الفتح إذ وشبوا أوشابًا من قريش وأتباعهم[١٣]، وقاتلوا جنود الفتح فقتل منهم خالد بن الوليد مقتلة عظيمة، ومع ذلك فقد أرسل إليهما رسول الله ﷺ مؤمنًا لهما، فجاءا فأسلم عكرمة مكانه، واستأجل صفوان إسلامه شهرين، فأعطاه ﷺ أربعة أشهر.

وفي حديث عائشة -رضي الله عنها من طريق عروة عند ابن إسحاق قالت: خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها

---

(١٣) الأوشاب: الأخلاط. (المجلة)

إلـى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه يا رسـول الله صلى الله عليك، فقال ﷺ «هو آمن» فقال عمير: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه ﷺ عمامته التـي دخل بهـا مكة، فخرج عميـر بها حتى أدركـه وهو يريد أن يركـب في البحر، فقال عمير: يا صفـوان فداك أبي وأمي، الله الله في نفسـك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ وقد جئتـك به، قال صفـوان: ويلك اغرب عني فـلا تكلمني، قال عميـر: فداك أبي وأمي، هو أفضل النـاس، وأبر الناس، وأحلم النـاس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشـرفه شـرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخافه على نفسي، قال عمير: هو أحلـم من ذلك وأكرم، فرجع صفـوان مع عمير حتى وقف علـى رسـول الله ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعـم أنك أمنتني، قـال ﷺ «صدق» قال صفوان: فاجعلني بالخيار فيه شـهرين، فقال ﷺ «أنت بالخيار أربعة أشهر».

قصة عتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأبي سفيان

وقصة أبي سفيان، وعتاب بن أسيد، وأخيه خالد بن أسيد، والحارث ابن هشام، وهم جلوس بفناء الكعبة إذ حانت صلاة الظهر، فأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يؤذن فوق الكعبة، فقال عتاب وخالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يسمع هذا فيغيظه، وقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، إن يكن الله يكره هذا فسيغيره، وقال أبو سفيان: لو تكلمَتْ لأخبرتْ عني هذه الحصى، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «قد علمت الذي قلتم» وأخبرهم بقول كل واحد منهم، فأسلم الحارث وعتاب، وقالا: نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك، وقبل ﷺ إسلام من أسلم، ولم يؤاخذ من تأخر بإسلامه.

وهكذا كان رسول الله ﷺ في قمة الشكر، عفوًا كريمًا، صفوحًا محسنًا، حكيمًا، صبورًا، رءوفًا، رحيمًا، جامعًا لمكارم الأخلاق وأحسن محاسن الشيم كما وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤)

قصة ضن الأنصار برسول الله ﷺ أن يفارقهم إلى غيرهم

ذكر ابن هشام عن مرسل يحيى بن سعيد أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، وظهرت عليه مظاهر الأنس بمشاعرها ومتعبداتها، أُنْسَ المشوق إلى حبيب غاب عنه ثم عاد إليه، تخوَّف الأنصار أن يكون هذا الأنس بمواقف العبودية في مشاعرها رغبة عند رسول الله ﷺ في إقامته بمكة، بلده، وأنس قلبه وفيها عشيرته وقومه الأدنون، فقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟

وإنما قال الأنصار ذلك حبًا في رسول الله ﷺ وضنا به أن تكون إقامته بينهم سرمدية لا يفارقهم، ولا يفارقونه، تعلقًا به ﷺ وحرصًا عليه أن يظل موضع اختصاصهم به في الإقامة بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

وقد حفزهم على هذا الظن ما رأوه منه ﷺ من مزيد الأنس بالمشاعر والشوق إلى مطالعة أسرار العبودية في مجاليها، بكثرة ذكر الله تعالى والدعاء المتضرع في ظل نسمات جودها، استنزالًا لرحمات الله في معالمها، وكان ﷺ حين قال الأنصار ذلك قد علا من الصفا حتى يرى البيت، فرفع يديه، وجعل يحمد الله ويذكره ويدعو بما شاء الله أن يدعو، متضرعًا متخشعًا، والأنصار تحته في سفح الصفا.

فلمـا فـرغ ﷺ من دعائه أخبـره الوحي بما قالـوا رأفة بهم ليمسـح عـن أفئدتهم ما مسـها من شـعور الألـم والحزن على مفارقـة رسـول الله ﷺ وحظوة غيرهم بقربه، وعيشـه بينهم، فالتفت إليهم ﷺ وقال لهم: «ماذا قلتم؟»

قالوا- اسـتحياء من مواجهته ﷺ بما هجس في خواطرهم حياله، وحرصًا على وجوده بينهم- : لا شيء، فلم يزل يتلطف بهم حتى أخبروه بما قالوا، فقال ﷺ ليطمئن أفئدتهم الوالهة، ويثلج صدورهم بإخباره أنه باق لهم، وسـيعيش بينهم: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال الزرقاني: وهذا المرسل صح بأتم منه في مسلم وأحمد وغيرهمـا عـن أبـي هريرة -رضـي الله عنه- أنـه ﷺ لما فرغ مـن طوافه أتى الصفا، فَعَـلا منه حتى يرى البيـت، فرفع يديه وجعل يحمد الله تعالى ويذكره، ويدعو بما شـاء الله أن يدعو، والأنصـار تحته، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قـال أبوهريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فليـس أحد من النـاس يرفع طرفه إليه، فلمـا قضى الوحي قال رسـول الله ﷺ «يا معشـر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسـول الله، قـال صلـوات الله عليـه: «قلتم أمـا الرجـل فأدركتـه رغبة في قريته، ورأفة بعشـيرته» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال ﷺ «فمـا اسـمي إذن؟ كلا، إني عبدالله ورسـوله، هاجرت إلى الله

وإليكـم، المحيـا محياكـم والممـات مماتكم» فأقبلـوا إليه يبكون، ويقولون: والله يا رسـول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسـوله، فقـال لهم ﷺ: «فـإن الله ورسـوله يعذرانكم ويصدقانكم».

وقـول هذه الروايـة التي صححها الزرقانـي، وهي كما قال من رواية مسـلم في صحيحه وأحمد في مسـنده، وغيرهما من الرواة عن الأنصار أنهم قالوا: أما الرجل- يعنون سيد المرسلين وخاتـم النبييـن محمدًا ﷺ فقد أدركته رغبة فـي قريته، ورأفة بعشيرته- أسلوب لا يستقيم مع ما عرف عن الأنصار من رفيع الأدب النفسي، والأدب التعبيري، خاصة مع رسول الله ﷺ في وصفه، والتحدث إليه ومخاطبته.

ولهـذا قـال لهم صلـوات الله عليه بعـد أن أخبرهـم بأنهم قالـوا هذا القـول، واعترفوا- كما تقول الروايـة- وقالوا، قلنا يا رسول الله: «فما اسمي إذن؟ كلا، إني عبدالله ورسوله» وهذا اسـتفهام إنكاري مؤيد بحرف الزجر «كلا» يُقصد به أن قولهم عـن رسـول الله (أما الرجـل) لا يوائم ما عرف عنهم من شـدة حبهم له ﷺ، وتوقيره وتعظيمه أخذا بما أدب الله به المؤمنين من رفيع الأدب في التحدث عن رسـول الله ﷺ، والأنصار خير المؤمنين بعد السابقين من المهاجرين.

وذكـر هذا الاسـتفهام، واتباعه بحـرف الزجر (كلا) دون ذكر جواب عنه يحتمل أن يكون بعضهم أجاب عن الاستفهام،

فذكر اسم رسول الله ﷺ الذي كان ينادي به قبل بعثته (محمد بن عبدالله) فرد بقوله: (كلا) ومعناه الزجر أن يكون هذا هو اسمه بعد رسالته في كل ما يتحدث به عنه مما يدخل في إطار رسالته، وإنما اسمه الذي يجب أن يتحدث به عنه في مقام رسالته: أنه عبد الله ورسوله.

ثم أخبرهم عن خصيصة اسمه بعد الرسالة بأنه هو الذي جمعه ﷺ بهم، ولأجله هاجر إلى الله وإليهم، تاركًا أرضه إلى أرضهم وبلده إلى بلدهم، وعشيرته إلى الحياة بينهم، فآووه ونصروه على من كذبه وأخرجه من بلده، وحاربه، ووقف أمام رسالته معوقًا مسيرتها إلى الآفاق، فحاربوا أعداءه وأعداء رسالته، وكانوا جيش الفتح الأعظم بعد أن كانوا كتائب النصر المؤزر.

ويحتمل أسلوب الكلام أنهم سكتوا، فلم يجيبوا عن استفهامه ﷺ استحياء منه لما رأوا من إنكاره عليهم أن يقولوا عنه: (أما الرجل)، ويرشح ذلك أنه ﷺ أتبع استفهامه بحرف الزجر فيكون الإنكار المفهوم من الاستفهام منصبًا على قولهم: (أما الرجل)، أي لا ينبغي لكم في شرعة رفيع الأدب التحدث عن نبيكم ورسولكم أن تقولوا عنه: (أما الرجل) وهو اسم يعم على الأولين والآخرين من الناس.

ولهذا قال صلوات الله عليه معلمًا ومؤدبًا: (كلا، إني عبدالله ورسوله) ثم بين لهم أن هذا الاسم الخاص بالرسالة

هـو الذي هاجر به إلى الله وإليهم، فهو العروة الإيمانية الوثقى بينـي وبينكم خاصة، وبيني وبيـن المؤمنين عامة، ثم رحمهم بعد هذا الدرس التربوي، فأقر أعينهم بأنه لن يفارقهم، فمحياه محياهم، ومماته مماتهم، وأرضهم أرضه، وبلدهم بلده، وهي مثـواه الأبدي، يحيا فيه معهم، وإذا فارقهم إلى الرفيق الأعلى، فحياته البرزخية فيها حتى يبعث الله العالمين للجزاء.

وفي هذا الإخبار من البشـرى لهم ما أثلج صدورهم، واقتلع جـذور الظنون والأوهـام من أفئدتهم، وملأها بالسـكينة وبرد اليقين، وهذا التأويل أقرب مناسبة لمعاني الروايات.

وقد أشـار الزرقاني إلى ما يمكن الجمـع به بين الروايتين، ولكنـه لـم يأثره، وإنما ذكـره احتمالاً فقـال: وكأن ذلك وقع لطائفتين، فبادر النبي ﷺ بإخبار إحداهما، فقال لهم: «قلتم» لجزمهـا بالقـول، وتلطف بالأخرى لكونها لـم تجزم، فقالت أتـرون رسـول الله ﷺ إذ فتح الله عليـه مكة بلده يقيـم بها أم يرجع إلينا.

ومعنـى كلام الزرقاني أن الأنصـار -رضي الله عنهم لما رأوا مظاهر الأنس ووله الشوق تغمر مشاعر رسول الله، ورأوا إشراق الغبطة وبارقات السرور بفضل الله عليه وعلى جميع أمته تبرق أسـاريره داخلهم الظن، وحرصًا على رسـول الله ﷺ، وضنًا به أن يشـركهم غيرهـم فيما خصوا به من إقامتـه بينهم - أفضى بعضهم إلى بعض بما دار في أخلادهم، وكان المتحدثون منهم

طائفتيـــن، فطائفة قال بعضهـا لبعض: أما الرجـل فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

ولعـل هذه الطائفة ممن جمح بها الحرص على بقاء رسـول الله ﷺ بينهـم، والضـن بـه أن يفارقهم إلى غيرهـم، فتفوهوا بهـذه الكلمة (أما الرجل) فـي ضمن ما قالوه، ولم يكونوا من ذوي القدمة في الإِسلام، الراسخين في ضبط ألسنتهم المعبرة عما في أنفسهم من الحرص على رسول الله ﷺ والحب والشح به أن يشاركهم فيه غيرهم.

ولهـذا كان خطابه صلوات الله عليه مـع هذه الطائفة جازمًا حاسـمًا، فقـال لهم: قلتم أمـا الرجل فأدركته رغبـة في بلده، ورأفة على عشـيرته، فقالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، فأخذ ﷺ يذكرهـم بما كان ينبغي عليهم مـن وزن الكلمات المعبرة عن خوالجهم لأنهم أسـوة يتأسـى بهـم غيرهم، فقـال لهم: «فما اسـمي إذن، إني عبد الله ورسـوله» فأقبلوا إليه يبكون، يقولون معتذريـن عمـا انزلقت به ألسـنتهم: والله يا رسـول الله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسـوله، فقـال صلوات الله عليه: «إن الله تعالى ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم».

أما الطائفة الثانية الذين قالوا ظنًا: أترون أن رسـول الله ﷺ إذ فتـح الله عليه أرضـه وبلده يقيم أم يرجع إلينا؟ فهؤلاء كانوا من الراسـخين الذين اسـتلجموا ألسـنتهم بحكمات اليقين، واعتصمـوا برفيـع الأدب فـي التحـدث عـن رسـول الله ﷺ،

فأبرزوا ما دار في دخائل أفئدتهم المفعمة بحب رسول الله ﷺ الضنينة به أن يفارقهم إلى غيرهم.

أولًا – بأسلوب الاستفهام، كأن كل واحد منهم يقول لأصحابه: هل عندكم من علم بما عند رسول الله ﷺ، من عزيمة، هل يقيم ببلده بين قومه وعشيرته بعد أن فتح الله عليه مكة، أو يرجع إلينا؟

ولا شك أن هذه الظنون تثيرها لهفة الحب، ولكنهم لم يجزموا؛ لأنه لم تبد لهم بادرة قولية أو فعلية تدل على ما عزم عليه رسول الله ﷺ.

وثانيًا – أنهم أبرزوا دخائل أنفسهم بأسلوب الظن ولم يجزموا بشيء، في أسلوب من الأدب الرفيع الذي أدب به المؤمنون، فقالوا: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا؟

ولهذا تلطف ﷺ مع هؤلاء، فلم يقل لهم كما قال للطائفة الأولى: (قلتم أما الرجل) وهذا لحسن تصرفهم وجمال تعبيرهم عن خوالجهم، فقال لهم: (ماذا قلتم؟) فلم يخبرهم بما قالوا بأسلوب الجزم، وهو قد أعلم عن طريق الوحي بما قالوا.

وفي استفهامه ﷺ منهم عما قالوا وهو به عليم زيادة في التلطف بهم ليكون في ذلك درس تربوي، لاسيما للذين قالوا:

أما الرجل ليعلمهم عن طريق أخوتهم أدب التعبير في التحدث عنه ﷺ .

ولهذا نفى الراسخون في ردهم على رسول الله ﷺ إذ قال لهم «ماذا قلتم»، فقالوا: لا شيء، أي لم نقل شيئًا جزمنا به واعتقدناه في قلوبنا، ولكنا ظننا ظنًا عبرنا عنه بما علمته يا رسول الله، رجاء أن يرحمنا الله ببقائك معنا حتى لا نرجع إلى ديارنا إلا ورسول الله ﷺ إمامنا وقائدنا محاطًا بحبنا وتعظيمنا لمقامه المنيف، وتطمئن قلوبنا ونعلم أنا صدقنا ما عاهدنا الله عليه من الحب لله ولرسوله ﷺ .

التوسع في تحليل كلام الزرقاني

ونحن نشعر أنا توسعنا قليلًا في بيان معنى كلام الزرقاني لندفع به إشكال الاختلاف بين الطائفتين اللتين فرض الزرقاني أن الكلام كان منهما، واختلف لاختلافه رد رسول الله ﷺ عليهما، مع التماس العذر للذين جمحت بهم العبارة، فقالوا: «أما الرجل» مدفوعين بحماسة الحب لرسول الله ﷺ والضن به أن يرجعوا إلى دارهم وليس فيهم صلوات الله عليه.

وإن كان الزرقاني ذكر هذا الكلام ليدفع به إشكال اختلاف الروايتين في كلام الطائفتين ورد رسول الله ﷺ قال لهم: «قلتم أما الرجل» مخبرًا لهم بما قالوا بأسلوب الجزم فأقروا بما قالوا واعتذروا، وجاءوه يبكون، فعذرهم وصدقهم، والتزموا ما ألزمهم الله من الأدب الرفيع تعظيمًا له ﷺ .

ورواية قالت إنه ﷺ سألهم: «ماذا قلتم؟» فاستحيوا منه ﷺ أن يصارحوه بما قالوا، فلم يزل يتلطف بهم حتى اعترفوا بما قالوا.

فأراد الزرقاني أن يجمع بين هذين الاختلافين في كلام الأنصار، وأن يوفق بين كلام رسول الله ﷺ في رده عليهم حسبما جاء في الروايتين، فذكر ما ظهر له من احتمال أن الكلام والرد عليه وقع من الطائفتين على نهج ما ذكرناه.

وقد رأينا أن ما ذكره الزرقاني احتمالاً هو الأقرب للجمع بين الاختلافين، وهو أسلم من رد الروايات عند الاختلاف، وأنه كلام حسن؛ لأنه إذ يدفع اختلاف الروايتين يدفع أيضًا ما جاء في إحداهما من إشكال في التعبير يجافي الواجب في ملاحظة رفيع الأدب عند التحدث عن رسول الله ﷺ، ويخرجه أن يكون صدر من الأنصار كلهم، وذلك في قول إحدى الطائفتين، بعضهم لبعض: «أما الرجل فأدركته رغبة في بلده» فسيَّرناه إلى هذا الإشكال لندفعه به، وهذا من قبيل التوسع في معنى الكلام ومده إلى أن يزيل إشكال الروايات في طرف آخر غير طرفه الذي سبق له، ولعل هذا الحديث دخله ما يدخل رواية الحديث بالمعنى من قصور في التعبير، والعلم عند الله.

مقابلة الإحسان إلى أهل مكة بأسوأ الغدر من الموتورين فأخزاهم الله

دخلت كتائب المجاهدين مكة يوم الفتح الأعظم، يقدمهم قادتهم، وحاملو ألويتهم وراياتهم من حيث أمرهم رسول الله ﷺ، وركزت راية رسول الله التي كان يحملها الزبير بن العوام بالحجون بأمره حيث نزل رسول الله ﷺ في قبة ضربت له، وأبى لحكمة سياسية أن ينزل في منزله الذي كان له قبل أن يهاجر لأن عقيل بن أبي طالب باعه فيما باع، كما أبى ﷺ أن ينزل في بيت أحد، وقال: «لا أنزل في البيوت» ثم انتقل إلي خيف بني كنانة، حيث تقاسم سدنة الكفر وأحلاس الوثنية على أظلم حلف تحالفوه ضد بني هاشم والمطلب.

وقد حاول بعض بقايا الموتورين من قريش أن يقاتلوا كتائب الجهاد وهم داخلون حيث يفاجئونهم في طرقات مكة التي تجمع فيها أوشابهم ومن تبعهم من القبائل، وقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم وإن لم يكن معهم أجبنا محمدًا - إلى ما يطلبه منا، وكان أول من قاتلوه من الكتائب كتيبة بني سليم، وقائدها خالد بن الوليد، فكف عنهم يده استجابة لأمر رسول الله ﷺ أن لا يقاتل قواد الكتائب إلا إذا

قوتلـوا ليكونـوا مدافعين، ولكن الموتوريـن من زعماء قريش طمعوا فـي غير مطمع، فقاتلوا خالدًا وقتلـوا من رجاله رجلًا، فقاتلهم خالد، وضربهم ضربة حاسمة، بددت جمعهم وشتت شملهم وفرقت جموعهم.

ولما فرغت كتائب الجهاد من هذه المناوشات التي لم تكن تغني عن قريش شـيئًا راجعوا أنفسهم، وطلبوا تجديد الأمان، فجدده لهم رسول الله ﷺ، وأسرعوا إلى بيوتهم يغلقون أبوابها عليهم، وطرحوا أسلحتهم في الطرقات فأخذها المجاهدون.

مظاهر فرحة المسلمين يوم دخولهم مكة فاتحين

وكان المجاهدون يوم دخولهم مكة مجهدين متعبين من طول ما قطعوا من الأرض مسافرين صائمين قبل أن يرخص لهم في الفطر، يحملون أثقالهم الحربية، فكانوا في أشد الحاجة إلى الراحة، فاتخذوا من يوم دخولهم مكة فاتحين يوم فرحة وراحة، فانطلقوا بعد أن قضوا على ما صادفهم من المناوشات في طرقات مكة ومشاعرها ومعالمها، يهللون ويكبرون ويحمدون الله على عظيم فضله ويسبحونه شاكرين إنعامه على رسول الله ﷺ، وعلى أمته، يهنئ بعضهم بعضًا، ويكثرون من الطواف بالبيت المشرف تعبدًا لله تعالى، وشوقًا إلى هذه المعالم التعبدية والمشاعر الإيمانية التي فارقوها ملجئين.

روى البيهقي عن سعيد بن المسيب قال: لما كان ليلة دخل الناس مكة، ليلة الفتح، لم يزالوا في تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا.

وكأنهم -رضي الله عنهم- جعلوا يوم دخولهم البلد الحرام لراحتهم وفرحتهم، فوسع لهم النبي ﷺ، وكان معهم سمحًا كريمًا، مقدرًا لما عانوه في سفرهم الطويل الشاق المضني، وهم صائمون في بعض أيام سيرهم، يحملون على كواهلهم ومراكبهم أثقال أهبتهم، وعدة الحرب لمن حاربهم، وأداة

قتال من قاتلهم، فتركهم حتى يأخذوا شيئًا من راحة أبدانهم.

فلما أصبحـوا من الغدر رآهم ﷺ قد اسـتجموا وأخذوا من الراحة قسـطًا أعاد إليهم أنفاسـهم هادئة ونفوسـهم مطمئنة، وكان ﷺ قـد قضى يومـه وليلته في تطهيـر البيت من أرجاس الوثنية، فلم يزل بالأصنام تكسـيرًا حتى قضى عليها، ثم دخل البيـت فمكـث فيه نهـارًا طويـلًا، وتجمع أصحابـه ينتظرون خروجـه فخـرج إليهـم، وكان قـد انضـم إليهـم مـن انضوى لجمعهـم ممن آمن من قريش[١٤]، بعـد أن اطمأنوا إلى تجديد أمان رسـول الله ﷺ إثر صرخة فزع من أبي سـفيان بن حرب، وهـو يرى موقف خالد بن الوليد من أوباش قريش: لقد أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم.

ووقـف ﷺ علـى درج البيـت خطيبًا في النـاس، فخطبهم خطبة شـاملة جامعـة لكثير من الأحكام التشـريعية، والحكم الاجتماعية، والآداب الخلقية، والمواعظ التربوية، فقال ﷺ:

---

(١٤) انضوى: انضم. (المجلة)

خطبة رسول الله ﷺ يوم الفتح الأعظم

بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا تحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص فيها بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن لكم، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم التفت ﷺ إلى جموع قريش فقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال ﷺ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

موقف شجاع من مواقف
أبطال الصحابة رضي الله عنهم

وقد أخرج البخاري حديث الخطبة العظيمة عن أبي شريح الخزاعي –رضي الله عنه – واسمه خويلد بن عمرو، وقيل غير ذلك – في موقف من مواقف الجهر بكلمة الحق بين أيدي الظلمة السفاكين، قال البخاري رحمه الله: حدثنا سعيد بن شرحبيل، حدثنا الليث عن المقبري، عن أبي شريح الخزاعي أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة – أي لقتال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولًا، قام به رسول الله ﷺ الغد من فتح مكة، سمعَتْه أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد شجرًا، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله تعالى أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب». قال عمرو بن سعيد لأبي شريح رضي الله عنه: انصرف أيها الشيخ، فنحن أعلم بحرمتها منك، إنها لا تمنع سافك دم، ولا مانع طاعة، ولا مانع جزية، فقال أبو شريح رضي الله عنه: إني كنت شاهدًا وكنت غائبًا،

وقـد أمرنا رسـول الله ﷺ أن يبلغ شـاهدنا غائبنا وقد بلغتك، فأنت وشأنك.

وموقـف أبـي شـريح رضي الله عنـه هذا من مواقف رسـوخ الإيمـان، وصلابـة اليقيـن الذي يشـهد فيـه أصفيـاء الإيمان مجريـات القدر في كتب غيب الله، ويـرون فيه بنور بصائرهم وإشـراق أرواحهم أن ليس أحد من الخلق بمغن عن أحد من الله شيئًا، وهو موقف من مواقف الجهاد في محاربة الباطل، ونصرة الحـق، والجهر بكلمة الحق بين أيدي الظالمين، يصكون بها أسماعهم على سـمع جلاوزتهم وهم مصلتو سـيوفهم انتظارًا لخائنة الأعين من الطغاة الفجرة، لإخلاء أعناق ناصري الحق، الصارخين بكلمته من رءوسهم.

فما أحوج الإسـلام والمسلمين في هذه الأيام إلى أمثال أبي شـريح رضي الله عنـه صراحة في أدب وحكمـة، فهو رضي الله عنـه لم يهجم هجوم الحمقى، ولكنه تلطف بعمرو بن سـعيد الأشـدق – لطيم الشـيطان، وأحـد جبابرة دولـة المروانيين، ومسـعري نيـران الفتن الجائحـة المدمرة في صدر الإسـلام – فاسـتأذنه أن يبلغه قولًا، سمعه من النبي ﷺ سماعًا مؤكدًا، لا يمتـري في كلمة منه، وأبلغه أن النبي أمر الشـاهدين لأمره من أصحابه أن يبلغوا الغائبين ما سمعوه جيلًا بعد جيل.

ولما لج عمرو بن سعيد في عناد الضلال، وطغيان الفجور، وادعى أنه أعلم من أبي شريح بما حدثه به عن رسول الله ﷺ لم

يسكت أبو شريح رضي الله عنه على هذا الضلال الجهول، بل قال لعمرو بن سعيد: وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا، ثم تابع أبو شريح رضي الله عنه كلامه بلون من الوعيد المبطن بالنصح، فقال لعمرو بن سعيد: وكنت شاهدًا وكنت غائبًا، وقد بلغتك فأنت وشأنك.

نص آخر لخطبة النبي ﷺ يوم الفتح

وقد أخرج البخاري أيضًا حديث خطبة الفتح من مرسل مجاهد فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحلل إلا ساعة من الدهر، لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يُخْتَلى خلاؤها، لا تحل لقطتها إلا لمنشد» فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإِذخر يا رسول الله، فإِنه لابد منه للدفن والبيوت، فسكت رسول الله ﷺ ، ثم قال: «إلا الإِذخر، فإِنه حلال».

غلط ابن إسحاق في تسمية من كان معه

موقف أبي شريح

وفي هـذه الرواية اختصار من جانب وزيادات من جانب آخـر، وقـد ذكر ابن إسـحاق حديث أبي شـريح في خطبة الفتح، وغلط ابن إسـحاق في تسـمية من بلغه أبو شـريح حديـث الخطبة عن النبي ﷺ، فسـماه عمرو بـن الزبير، فقال: وحدثني سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعـي، قال: لما قدم عمرو بـن الزبير مكة لقتال أخيه عبد الله بن الزبير جئته، فقلت له: يا هذا، إنا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ فينـا خطيبًا فقـال: «أيها النـاس، إن الله حرم مكة يـوم خلق السـموات والأرض، فهي حرام مـن حرام الله إلى يـوم القيامـة؛ فلا يحل لامـرئ يؤمن بالله واليـوم الآخر أن يسـفك فيهـا دمًا، ولا يعضد بها شـجرًا، [إنهـا] لم تحل لأحـد كان قبلـي، ولا تحـل لأحد يكون بعـدي، ولم تحل إلا هذه السـاعة، غضبًا على أهلها، ألا ثم رجعت كحرمتها بالأمـس، فليبلغ الشـاهد منكـم الغائب، فمـن قال لكم: إن رسـول الله ﷺ قـد قاتل فيها، فقولـوا: إن الله قد أحلها

لرسوله ولم يحلها لكم».

ومع ما في سياق ابن إسحاق من المخالفة لسياق غيره في نص ما ذكروه من الخطبة فقد وهم ابن إسحاق فجعل عمرو بن سعيد بن العاصي الأشدق - وكان يسمى لطيم الشيطان، وكان كما يقول السهيلي جبارًا شديد البأس - عمرو بن الزبير، وقد خالف ابن إسحاق جميع من ساقوا حديث أبي شريح في هذا الوهم.

وقد ساق ابن إسحق خطبة الفتح في موضع آخر بسند آخر وفيما ساقه زيادات مفيدة اتفق في بعضها مع غيره من رواة الحديث والمغازي، ونحن نسوق هذا النص لما فيه من هذه الزيادات لما فيها من الفائدة.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن صفية بنت شيبة، أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجنه في يده[١٥]، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب

(١٥) المحجن: عصا معوجة. (المجلة)

الكعبة وقد استُكِفّ له الناس في المسجد[١٦]، وزاد موسى بن عقبة أنه ﷺ انصـرف إلى زمزم فاطلع فيها، ودعا بماء فشرب منه وتوضأ، والناس يبتدرون وضوءه، والمشركون يتعجبون من ذلك، ويقولون: ما رأينا ملكًا قط، ولا سمعنا بـه مثل هذا، وأخر رسـول الله ﷺ المقام إلـى مكانه الذي عليه اليوم، وكان من قبل مُلصقًا بالبيت.

(١٦) استكفَّ: جمع الكافة. (المجلة)

نص لخطبة الفتح أوفى وأبسط يسوقه ابن إسحاق

ثم ساق ابن إسحاق نصًا من نصوص الخطبة، فقال: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ وقف على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مئة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها».

«يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا ﷺ هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات: ١٣)

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم»، قال ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده ﷺ، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة» فدُعي له، فقال ﷺ: «هاك مفتاحك يا عثمان» اليوم يوم بر ووفاء».

مجمل إطار البحث في غزوة الفتح

فـي هذا الإطـار أجرينا الحديث في ذكر معالـم هذه الغزوة المباركـة، غـزوة الفتح الأعظـم، فتح مكة، بلـد الله المحرم، وبلد رسوله ﷺ الذي اختاره الله مهدًا لمولده، ومرتعًا لنشأته، ومتقلبًا لشـبابه، ومراحًا ومغدى لرجوليته، ومهبطًا لرسالته، ومتنـزلًا لبعثته، وغرس في قلبه حبه لها، فقال فيها وهو واقف في الحزورة: «أما إنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إليّ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت».

وقـد بينا أن النبي ﷺ أعـد لفتحها جيشًـا عرمرمًا كثيفًا، كامـل الأهبة وافي العدة بالسـلاح والكـراع والمؤن، وأدوات الحـرب والقتـال، بيد أنـه ﷺ كان يتفادى القتـال فيها وفي المسـير إليهـا، ويتخذ مـن الرحمة بأهلها دروعًـا تقيهم بأس الغـزاة، فتلطف بهم غاية التلطف أفـرادًا وجماعات، وأدناهم من نفســه، وقابل من أساء وطغى وبغى منهم بأعظم الإحسان، وعفـا عما سـلف منهم ومـن آبائهـم، ولكن أحقـاد الجاهلية البرصـاء كانـت لا تزال تملأ قلـوب الموتورين الذين وبشـوا الأوبـاش وجمعـوا الأتباع لقتـال كتائب الفتـح والجهاد وهي تدخل مكة آمنة مطمئنة، فأراهم الله فيما بيتوه من الغدر وخيانة الأمان الخزي والخذلان.

حملة تأديبية للغادرين ناقضي عهد الأمان

وكان رسول الله ﷺ قد أمر قواد كتائبه أن لا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال، وأن يكفوا أيديهم ما استطاعوا، ولكن ذلك الإحسان أطمع الموتورين من زعماء قريش، فبدءوا بقتال كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقتلوا منها من قتلوا غدرًا وخيانة وكلبًا وضراوة، فقاتلهم خالد بن الوليد ليدفع عن نفسه وجنوده، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ولما رأى رسول الله ﷺ جموع الأوباش الذين وبشهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أمر قواد كتائب الأنصار أن يحصدوا هؤلاء الأوباش حصدًا، تأديبًا لهم ولزعمائهم الذين جمعوهم ليريهم عواقب الغدر ونقض عهود الأمان التي كان ﷺ قد منحهم إياها على يد زعيمهم أبي سفيان بن حرب، ورفيقه حكيم بن حزام اللذين لم يكونا مع المحرضين على القتال.

ومضت حملة التأديب لتأخذ على الذين سعروا ويسعرون نيران الفتن طريقهم حتى استسلمت قريش بعد أن صرخ فيهم أبو سفيان وحكيم: يا معشر قريش، علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، وأسرعت أوباش قريش ومن كان يحرضهم على القتال إلى البيوت يدخلونها، ويغلقون أبوابها عليهم،

والرعــب يملأ قلوبهم والفزع يلعــب بأفئدتهم، ويهز كيانهم هزًا عنيفًا لا يتركهم يستقرون على شيء.

وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا ملجأ يتنفسون فيــه أنفاس الراحة إلا أن يلقوا بأيديهم مستسـلمين في ضراعة إلى التوبة والندم بين يدي رسول الله ﷺ، فرقّ لهم ﷺ، وقبل منهم ضراعتهم، فأسـلموا طائعين ومكرهين، فقبل إسلامهم، ولـم يبحث عما فـي قلوبهم، بل عفا عنهم مسـتألفًا قلوبهم، حتى صلح حالهم أو حال أكثرهم بما بوأهم الله تعالى من ساحة الإيمان، وأحسن الله إليهم بفضله، فكانوا بعد ذلك قادة ذادة، وسـادة رادة، وحملوا ألوية الفتـح والجهاد، وحمل من بعدهم أبناؤهـم وأحفادهم رايـات الهداية الإسـلامية، وأدربوا بها في آفـاق الأرض برًا وبحرًا يدعون إلـى الله[17]، ليحرروا الناس من ذل عبوديتهم للمخلوقين إلى عز عبوديتهم للخالق عز شـأنه، وأخرجـوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الظلم والجهل إلى نور العدل والرحمة.

والمتأمل فيما كتبنا فـي إطار مراحل هذه الغزوة المباركة، غــزوة الفتــح الأعظم يدرك منحانــا فيما أردنا من سـوق بعض أحداثهــا، وأسـبابها وآثارهــا، وأنهــا كانت غزوة بــر ورحمة

(١٧) الدرب الطريق. وأدربوا بها في الآفاق أي ساروا بها في الآفاق. (المجلة)

ورأفة، ووفاء وعفو وصفح، وأنها كانت نسجًا لخيوط وحدة إيمانية أوسع وأعظم من الوحدة الإيمانية التي بدأت بمكة قبل الهجرة في دار الأرقم، ومن الوحدة التكافلية الاجتماعية التي عقدت عرواتها في المسجد النبوي، وهو يؤسس على الأخوة والتقوى، وفي دار أنس بن مالك بالمدينة المنورة، لأن وحدة الفتح بمكة كانت وحدة انطلاق بالهداية ونشر رسالة الإسلام في أوسع مدى من البلاد والأمم والشعوب، أما الوحدة الإيمانية قبل الهجرة، والوحدة التكافلية بعد الهجرة فهي وإن كانت أمتن نسجًا، وأفضل سردًا وأشرف منبعًا لكنها كانت أضيق حدودًا وأصلب عودًا، وأقوم سبيلًا، بل كانت عماد قوة المجتمع المسلم -أفرادًا وجماعات- الروحية، وكانت أساس حضارته الإيمانية التي حملها رواد الوحدة المكية بعد الفتح الأعظم، وبقوتها الروحية انتشرت الرسالة الإسلامية بمناهجها الأصيلة.

أسباب ما نالت غزوة الفتح الأعظم من عظيم المنزلة بين جميع الغزوات

وإنما كان لفتح مكة هذه المنزلة العليا، والمكانة الفضلى، والشهرة الداوية في أسماع التاريخ بين الغزوات التي سبقتها في قتال المشركين وقتال الوثنيين حتى سماها ابن القيم (الفتح الأعظم) لما اشتملت عليه من أمور دينية واجتماعية، وآداب تربوية نذكر منها ما قبسه الخاطر من نور مصابيحها:

أولًا - إن فتح مكة كان مفتاح الفتوحات الإسلامية التي تعاقبت بعده، فكان هذا الفتح جديرًا أن يكون بمنزلته العظمى التي عرفها له التاريخ عامة وتاريخ الإسلام خاصة.

ثانيًا - أن هذا الفتح حرر البلد الأمين من رق التعبد للأصنام والأوثان، وطهره من الشرك، وجعله متعبدًا توحيديًا لله الواحد الأحد.

ثالثًا - أن هذا الفتح جعل من البلد الحرام دار أمن وأمان، وسلامة وإسلام كما أرداها الله تعالى منذ خلقها يوم خلق السماوات والأرض.

رابعًا - أن هذا الفتح طهر الكعبة المشرفة من رجس الشرك، وجعلها قبلة يتجه إليها المسلمون بقلوبهم وأرواحهم وأبدانهم في صلواتهم، حيثما كانوا من أرض الله، فلا تقبل صلاة من مسلم - وهو متمكن من التوجه إليها - إلا إذا كان

موليًا وجهه وقلبه وروحه إليها بإخلاص في التعبد لله وحده، وفي ذلك جمع كلمة المسلمين، وتحقيق وحدتهم الإيمانية التي يكونون بها إخوة متحابين متراحمين مهما تناءت بهم الأوطان؛ لأن مشاعرهم موحدة، وإحساساتهم موحدة، وأهدافهم موحدة، وآمالهم موحدة، وآلامهم موحدة، كما قال رسول الله ﷺ وهو يصف حال المسلمين في وحدتهم الإيمانية: إنهم «كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

وبذلك يكون المجتمع المسلم موحدًا في كل ما ينتابه من الآمال والآلام، وتكون وسائل هذا المجتمع المسلم في حياته للوصول إلى غاياته سلمًا وحربًا موحدة في ظل بيئاتهم ووحدتهم.

خامسًا - هذا الفتح أعاد محمدًا رسول الله ﷺ إلى بلده آمنًا سيدًا منصورًا، سالمًا مشرّفًا بفضل الله عليه وعلى أمته، بعد أن أخرج منه مهاجرًا، لأنه لم يجد في بلده الأمين متنفسًا لدعوته، ولا مسالمة له ولأصحابه، وسدت أمام رسالته وهدايته الطرق التي كانت مفتحة الأبواب لكل شرك وإلحاد.

سادسًا - أن هذا الفتح وجه الأمة الإسلامية بقوتها الروحية والمادية إلى الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته بين العباد، وجعل لهذا الجهاد ممن هداهم الله وأسلموا من أهل مكة، ومن أولادهم وأحفادهم جنودًا وأبطالًا حملوا ألويته ورايته

فانساحوا بها في البلاد يفتحون القلوب بالإيمان، ويفتحون البلاد بالعدل والإخاء والمرحمة والحب الإيماني، والمواساة والترافق.

سابعًا - أن هذا الفتح حرر المجتمع الإنساني من الخوف والظلم والجهل، فأصبح المسلم في ظل راية هذا الفتح لا يخاف أحدًا: إلا الله الذي بيده نواصي العباد.

ثامنًا - أن هذا الفتح المكي الأعظم أنقذ به أقوامًا، فأخرجهم من هاوية الكفر والضلال إلى أن أقعدهم مقاعد الصدق في ميادين البطولة، فكان منهم قادة للأمة في أفكارها، وسياستها، وعلومها ومعارفها، ومعالم حضارتها المسلمة، ومكنوا للحياة الصالحة بما تم على أيديهم من الفتوحات الهادية العادلة.

وبهذا كان هؤلاء تفسيرًا عمليًا لقوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

وكان مجتمعهم الذي يعيشون معه، ويحيون بينه دعاة: إلى الله تعالى تفسيرًا تطبيقيًا لقوله عز شأنه:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ

لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

(النور: ٥٥)

وكانوا بيانًا لحجة الله البالغة في قوله تبارك وتعالى:

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

(القصص: ٥٧)

غزوة حنين: جموع هوازن وثقيف

هــذه الغزوة فــي وقائعهــا وأحداثهــا، والذين قوتلــوا فيها غزوة واحدة متداخلة الوقائــع والأحداث، متلاحقة الحوادث، متشــابهة الأســباب والدوافع، موحدة الآثار، ممتزجة الحشود وإن جعلهــا الــرواة غزوتين: غزوة هوازن فــي حنين وأوطاس، وغزوة ثقيف في الطائف.

بدأت هذه الغزوة في وادي حنين وهو على فرســخ من عرفة تجمعت فيه قبيلة هوازن وهي من كبريات القبائل العربية عددًا وأوفرها عدة، وأكثرها أموالًا، وأشــدها تعززًا بتراث الجاهلية ومواريــث أعرافها وعاداتها، وانضــوى إليها من بقايا الجيوب القبلية والبطون المنتشــرة هنا وهناك من أعراب البوادي حول مكــة أعداد كثيرة، وانضمت إليها ثقيف كلها، وهي وإن قلت في أعدادها وأموالها عن هوازن، لكنها كانت أشــد منها عنادًا ومناكرة للإســلام، وجموحًا متأبيًا، وفجــورًا في صلابة الكفر والشرك والوثنية.

وكانــت هوازن كما روى الواقدي في مغازيه - أقامت ســنة تجمع الجموع، وتُسَــيِّر رؤســاءها في العرب لتجمعهم حولها لحرب رســول الله ﷺ لما أفزعها انتصاره فــي غزواته انتصارًا تطامنــت له رقــاب قبائل العرب فــي مضاربهــا، إلا ما كان من قريش وعنادها حتى جاء أجلها في الاستسلام بفتح مكة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ منها، وتمهدت له بعد كسر شوكتها، وذهاب طواغيتها إلى الفناء في الغزوات التي واقفت فيها النبي ﷺ وجند كتائبه المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله فزعت هوازن وثقيف فزعًا شديدًا حين عرفوا أن مكة فتحت، واستسلمت، وأسلمت طوعًا أو كرهًا، ومشى زعماء ثقيف وهوازن بعضهم إلى بعض، وحشدوا جموعهم في أعداد هائلة، وعدة وافرة وأموال متكاثرة؛ إشفاقًا ورهبة أن يغزوهم رسول الله ﷺ، وتقاولوا وهم في جموعهم التي بلغت أكثر من عشرين ألف مقاتل - كما جاء في كلام قائدهم مالك بن عوف - بما في صدورهم، وأبدوا ما في دخائل نفوسهم من الحرد الحقود، والتغاضب الفجور، وقالوا فيما تقاولوا به: قد فرغ محمد فلا ناهية له دوننا، ولا حواجز تمنعنا منه.

والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا، وزعموا متكذبين ليثيروا نخوة القتال في أوشابهم[١٨] وأتباعهم من الغوغاء كما تكذّب من قبلهم إخوة لهم من اليهود، يهود بني قينقاع عقب انتصار رسول الله ﷺ على قريش ببدر انتصارًا تجاوبت بأصدائه آفاق الجزيرة العربية كلها، وقد كانت قريش إذ ذاك على أحدّ شوكتها، وأقوى قوتها، وذروة غرورها، وأوفر العدد من طواغيتها وقادتها الذين كانوا أشد حردًا وحقدًا، وقد جعلت

(١٨) الأوشاب: جمع لامفرد له ومعناه: الأخلاط المتفرقة من الناس. (المجلة)

زمــام قيادتها فــي يد أفجر فراعيــن الأرض، وأخبث من مشــى علــى أديمها أبي جهل بن هشــام، فقادها بغــروره وفجوره إلى حتوف أشــرافها وصناديدها الذين كان يقدمهم إلى قليب بدر، ولكنهــا انهزمت على كثرة أعدادها وأوفر عددها، وأشــرافها وصناديدها الذين قتلهم الله تعالى بسيوف الإسلام، فانكسرت شوكة قريش بهذه الغزوة وهي أول غزوة في الإسلام.

تشابه بين غرور هوازن ويهود بني قينقاع

ولما بلغ هذا الانتصار يهود المدينة قالوا: لئن صح هذا فبطن الأرض خير من ظهرها، وقال بنو قينقاع منهم يتكذبون، وهم أخبث اليهود كفرًا، وأصلبهم عودًا، وأفجرهم لؤما، وأبأسهم في قتال: إن محمدًا لاقى قومًا لا يحسنون القتال، ولو قاتلنا لعلم أنّا الناس، فأكذبهم الله تعالى وفضحهم، وسلط عليهم رسوله ﷺ، فحاصرهم وأذلهم حتى شفع لهم عنده ﷺ ربيبهم رأس النفاق والمنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وكانوا مواليه وحلفاءه، فأطلقهم له رسول الله ﷺ، وأجلاهم عن جزيرة العرب، فخرجوا أذلاء مدحورين إلى أذرعات، وقطع الله دابرهم فلم يبق لهم ذكر في الحياة.

كذلك قالت هوازن مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، حذو النعل بالنعل، وأخذوا يتحاثون، ويتحاضون على حرب رسول الله ﷺ، وقال بعضهم لبعض: فأجمعوا أمركم، وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم، وساروا بجموعهم الحاشدة ومن ورائهم أموالهم، ونساؤهم، وذراريهم إلى وادي حنين، وهو واد حطوط كثير الانحدارات والشعاب، والمكامن، وجعلوا عناج أمرهم إلى مالك بن عوف النصري، وهو شاب غرير، لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لم يشهد من تجارب الحروب وخبراتها وسياستها شيئًا سوى أنه مغرور بشبابه وكثرة حشود قومه ومن انضوى إليهم، تدفعه حماسة الشباب الغرير المغرور الذي

لـم يأخذ مـن دروس التجارب في الحياة ما يحجـزه عن التهور الأحمـق، المنطلق بالتيـه والبأو[١٩] والعنجهيـة[٢٠] عن قيود الفكـر المتأني الذي يحسـب لكل أمر حسـابه، ويلبس لكل حالة لبوسـها، ويتخـذ للأحداث أقرانها، وللوقائع شـكولها، ممـا جعله يسـلك مسـلكًا في تأهبـه للقتال، وملاقـاة جموع كتائب الجهاد المسـلمة بقيادة رسول الله ﷺ لم يُعْرَف لأحد من قادة العرب في حروبهم قبله، فقد حشد زعيم هوازن مالك بن عوف أموال هوازن ونسـاءها وذراريهـا ونزل بهم في وادي أوطـاس، واجتمع إليه أشـراف قومه، وفيهـم دريد بن الصمة، فارس فرسـانهم، وبطل أبطـال حروبهم الذي نهد تحت ظلال السـيوف والرماح، وكان قـد بلغ من العمر أرذلـه، فجعل منه ذلك مخبار تجارب في خوض معامع الحرب ومعرفة سياستها، وقـد جيء به في شـجار له، يقـاد به، ولم يبق فيـه للكر والفر شيء، وإنما بقي فيه التيمن برأيه والاستفادة من تجاربه، فلما أنزل من شجاره، قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

وعنـد ابـن إسـحاق أن هـوازن لمـا اجتمعـت علـى حرب المصطفى ﷺ سألت دريد بن الصمة الرياسة عليها، فقال لهم

(١٩) البأو: التكبر. (المجلة)

(٢٠) العنـاج حبل يكون في أسفل الدلو يمسكـه إذا انقطع الحبل الآخر. وقوله (جعلوا عناج أمرهم إلى فلان) معناه جعلوه صاحب القرار فيهم. (المجلة)

دريد: وما ذاك؟ وقد عمي بصري، وما أستمسك على ظهر الفرس، ولكن أحضر معكم لأشير عليكم رأيي بشرط أن لا أخالف، فإن ظننتم أني مخالف أقمت ولم أخرج، فقالوا له: لا نخالفك، وجاءه مالك بن عوف، وقال له: لا نخالفك فيما تراه، فقال دريد: تريد أن تقاتل رجلًا كريمًا، قد أوطأ العرب وخافته العجم ومن بالشام، وأجلى يهود الحجاز إما قتلًا وإما خروجًا عن ذل وصغار، ويومك هذا الذي تلقى فيه محمدًا ما بعده يوم! قال مالك بن عوف: إني لأطمع أن ترى ما يسرك! قال دريد: منزلي حيث ترى، فإذا جمعت الناس سرت إليك، فلما خرج مالك بالظعن والأموال وأقبل دريد قال لمالك: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويعار الشاء، فقالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم، ونساءهم وأبناءهم، فقال دريد: فأين مالك؟ فدعي إليه، وقالوا: هذا مالك، فقال له دريد: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ قال مالك بن عوف: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال دريد: ولم ذاك؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنْقَضَ له دريد – أي صَوَّت له بلسانه وهو داخل فمه بما يشبه الريح الذي يخرج من الإنسان سخرية منه – ثم قال له إمعانًا في السخرية، راعي ضأن والله، ما

لـه وللحرب، وصفق بإحدى يديـه على الأخرى تعجبًا، وقال: وهل يرد المنهزم شـيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسـيفه ورمحـه، وإن كانت عليك فضحت فـي أهلك ومالك، ثـم قـال دريد لمالك: يا مالك بن عوف إنـك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنع بلادهـم، وعليا قومهم، ثم القَ الصُّباء علـى متون الخيل[٢١]، فـإن كانت لك لحقت بك مـن وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك بن عوف بـن عوف في غرور متعجرف، وعناد مسـتكبر، وتهـور أحمق: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك، فغضـب دريـد، وقال: يا معشـر هوازن، ما هذا بـرأي، إن هذا فاضحكم في عورتكم، وممكن منكم عدوكم، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم.

ثـم توجه مالك بـن عوف إلـى قومه فقـال: والله لتطيعنني يا معشـر هـوازن أو لأتكئن على هذا السـيف حتـى يخرج من ظهري، فقالوا: أطعناك.

وتهيئـوا للقتال تحت إمـرة مالك بن عوف، ولم يسـمعوا لـرأي دريد بـن الصمة، فقال دريـد: هذا يوم لم أشـهده، ولم يفتني.

(٢١) الصُّباء والصُّباه بمعنى واحد. أي من تركوا دينهم. (المجلة)

مخابرات رسول الله تأتيه بأخبار أعدائه

وكان رسـول الله ﷺ على منهجه السياسـي في غزواته من الاهتمـام بتعـرف حال أعدائه قـد بعث عبد الله بـن أبي حدرد رضي الله عنه – كما في حديث جابر عند ابن إسـحق من رواية الشيباني – وأمره بالدخول في عسكر هوازن وثقيف، ليعلم له علمهـم، ويتعرف حالهم، ليكون الإقـدام على مواقفتهم على بصيـرة من أمرهم، فأتاهم ابن أبي حـدرد رضي الله عنه، وكان رجلًا خبيـرًا بمداخل الأمور ومخارجهـا، فدخل فيهم، وجاس خلال عسـكرهم وأقام بينهم يومًا أو يومين، حتى سـمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسـول الله ﷺ، وسـمع من مالك بـن عـوف قائد القوم، وعرف أمرهم، وما هـم عليه من قوة في العدد والعدة.

وعند الواقدي أن عبد الله بن أبي حدرد انتهى إلى خباء مالك بـن عوف، فوجد عنده رؤسـاء هوازن، فسـمعه يقول لهم: إن محمدًا لم يقاتل قومًا قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا، لا علم لهم بالحرب، فيظهر عليهم.

فـإذا كان السـحر فصفـوا مواشـيكم ونسـاءكم وأبناءكم مـن ورائكـم، ثم صفـوا محاربيكم، ثم تكـون الحملة منكم، واكسـروا جفون سـيوفكم، فتلقونه بعشـرين ألفًا مكسـورة الجفـون، واحملـوا حملة رجل واحد، واعلمـوا أن الغلبة لمن حمل أولًا.

فجـاء ابـن أبـي حدرد إلـى رسـول الله ﷺ فأخبـره الخبر،

فقال ﷺ لعمر بن الخطاب: «ألا تسمع ما يقول؟» فقال عمر: كـذب، فقـال ابن أبي حـدرد لئن كذبتني يا عمـر ربما كذبت بالحق، فقال عمر لرسـول الله ﷺ: ألا تسـمع ما يقول؟ فقال رسول الله ﷺ لعمر: «قد كنت ضالًا فهداك الله».

وفي حديث سـهل بـن الحنظليـة عند أبي داود والنسـائي بإِسـناد حسـن، أن أصحاب رسول الله ﷺ سـاروا معه فأطنبوا السير، فجاء رجل فارس - هو ابن أبي حدرد كما يقول الحافظ ابن حجر - وهو المتقدم في حديث جابر فقال:

إنـي انطلقت من بين أيديكم حتـى طلعت جبل كذا وكذا، وإذا أنـا بهوازن عـن بكرة أبيهـم، بظعنهم ونعمهم وشـائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسـلمين غـدًا إن شـاء الله» وفي هذا الحديـث أن النبي ﷺ قال: «من يحرسـنا الليلة؟» قال أنس بن أبي مرثد أنا يا رسـول الله، قـال ﷺ: «فاركب» فركب ابن أبي مرثد فرسًـا له، وجاء إلى رسـول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «اسـتقبل هذا الشِّعب حتى تكون في أعلاه، ولا نُغَرنَّ من قبلك الليلة».

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسسـتم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسناه، فثوب بالصـلاة، فجعل ﷺ يصلـي، وهو يلتفت إلى الشـعب، حتى إذا قضـى صلاته، قال: «أبشـروا فقد جاءكم فارسـكم» فجعل ينظر إلى خلال الشـجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشعب، حيث

أمرتني، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحـدًا، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقـال: لا، إلا مصليًا أو قاضـي حاجة، فقال له ﷺ: «قـد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها».

وهـذه القصـة تمثـل أعظـم منـازل الرفعـة لمـن يحـرس المسـلمين، وهي نموذج مـن نماذج السياسـة الحكيمة التي تمثل معلمًا من معالم المنهج الإسـلامي في رسالة الإسلام، في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عددًا وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة من ألزم ما يلزم قادة كتائب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ليتقي بها المجتمع المسلم المفاجآت من قبل العدو، ويتخذ لكل حركة من حركاته ما يتلاءم معها سلبًا وإيجابًا.

قـال الواقدي: لما كان ثلث الليل عمد مالك بن عوف قائد هوازن إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين، وهو واد حطوط ذو شـعاب ومضايـق، وفرق الناس، وأوعز إليهـم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة.

وعبَّأ رسـول الله ﷺ كتائبه وصفهم صفوفًا، ووضع الألوية والرايـات فـي أهلهـا، وتهيـأ ﷺ للحـرب، ولبـس درعين، والمغفر، والبيضة، واسـتقبل الصفـوف، وطاف عليهم بعضًا خلف بعض يتحدرون، فحثهم على القتال وبشـرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا.

اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل

قال ابن القيم: من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدرًا وشرعًا، فإنه ﷺ أكمل الخلق توكلًا، وقد دخل مكة والبيضة على رأسه، ولبس يوم حنين درعين وقد أنزل الله عليه:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. (المائدة: ٦٧)

وكثير ممن لا تحقيق عنده يستشكل هذا، ويتكايس في الجواب تارة بأنه فعله تعليمًا لأمته، وتارة بأنه قبل نزول الآية، ولو تأمل أن ضمان الله العصمة لا ينافيه تعاطيه لأسبابها، فإن ضمان ربه لا ينافي احتراسه من الناس، كما أن إخباره تعالى بأنه يظهره على الدين كله ويعليه لا يناقض أمره بالقتال وإعداده العدة والقوة ورباط الخيل، والأخذ بالجد والحذر والاحتراس من عدوه ومحاربته بأنواع الحرب والتورية، فكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها، وذلك لأنه إخبار من الله عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها بحكمته موجبة لما وعد به من النصر والظفر وإظهار دينه وغلبة عدوه.

ونظر بعض جند كتائب الإسلام إلى صفوف المسلمين فأعجبته كثرتهم، فاهتبلها الشيطان وصرخ بها على لسان هذا الذي أعجبته كثرة جند الإسلام، قائلًا: لن نُغلب اليوم من قلة، فمضت الكلمة مسرعة تهوي إلى أسماع وقلوب من

كان منها على مسمع، تحمل إلى عامة الجند الفرحة الغافلة، والاسترخاء الكسول، والتواكل المتثاقل.

وقد روى يونس بن بكير، المعروف بالشيباني في زيادته على مغازي أستاذه ابن إسحاق، عن الربيع بن أنس أن رجلًا قال يوم حنين: لن نُغلب اليوم من قلة، قال الزرقاني مبينًا لجهالة الرجل في رواية ابن بكير عن الربيع بن أنس: هو غلام من الأنصار كما في حديث أنس عند البزار، بيد أن كلام الزرقاني لم يذهب الجهالة كلها عن الرجل، وإنما أذهب بعضها، وبقي على أكثر حاله في الجهالة، لأن قول الزرقاني أخذًا من حديث أنس عند البزار هو غلام من الأنصار لم يبين من هو هذا الغلام الأنصاري؟ وما مكانته في الجهاد؟ وما منزلته بين المسلمين المقاتلين؟ وقيل: إن قائل ذلك رجل من بني بكر لم يسم، فبلغت هذه الكلمة المغررة التي لم تكن تجري على منهج رسالة الإِسلام، مسامع رسول الله ﷺ فشق ذلك عليه، وكرهه، روى الحاكم وصححه، وابن المنذر، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه، قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة، وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل حين اجتمعنا، فكره ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم.

تحقيق في تبيان معنى الآية

وهـذه الرواية أقرب الروايات إلى أسـلوب القرآن الحكيم، إذ أسند الإعجاب إلى الجماعة ولم يخصص فردًا، ولهذا كانت المحنة التأديبية قاسـية شاملة، فلم يثبت مع النبي ﷺ إلا نفر من آل بيته، كان فيهم العباس عم رسـول الله ﷺ، وأبو سفيان بـن الحـارث ابن عمـه ﷺ، وبعض أبنـاء العبـاس، وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب، وفر جمهرة الجيش مدبرين كما قال الله تعالى معاتبًا ومنذرًا، ومحذرًا، ومعلمًا ومذكرًا:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥)

وفي قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ إشارة إلى أن النصر لا تلزمه كثرة الجند وضخامة الأهبة، وفيه إشارة إلى ما سبق لهم من مواقف كثيرة في مواطن الجهاد، ولم تكن لهم كثرة عددية، ولا قوة تأهبية، وإنما كانت قلوبهم مفعمة بالاعتماد على الله، والثقة به، يرون أن النصر من عنده، يؤيد به من يشاء من عباده.

وفيه عتـاب مطوي للذين أعجبوا بالكثـرة، فلم تغن عنهم

شيئًا، مع علمهم القاطع بأنهم نصروا وهم قلة في مواطن كثيرة، فلما كَثَّرهم الله نسوا ما كان من نعم الله عليهم بالنصر المؤزر في ظل القلة الصابرة المعتمدة على الله.

ثم أفصح الله تعالى عن صريح العتاب المعير لهم بقوله جل شأنه:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ مذكرًا لهم ما كان منهم في ظل الكثرة المعجبة لهم، وأنه لم يكن لهم مع الكثرة صبرهم الذي كان لهم مع القلة المتوكلة على الله في ثقة اليقين ورسوخ الإيمان، وأنهم لم يحتملوا مع الكثرة ما احتملوه في سوابقهم مع القلة، بل ضاقت عليهم أنفسهم لَمَّا اعتمدوا على الكثرة، وتخلوا عن مرارة الصبر، فولوا مدبرين، تاركين رسول الله ﷺ في نحر العدو في قلة قليلة من آل بيته وخلص المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى ما تفضل به من إنعام على رسوله ﷺ بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، وتأييده بنزول الملائكة بعد أن فروا عنه، وحمى مقامه المنيف الأشرف من أن تشوبه أدنى شائبة افتخار أو إعجاب بكثرة الجند ووفرة الأهبة، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (التوبة: ٢٦)

وهذا تذكير من الله تعالى للمؤمنين بما سبق لهم في مواطن اشتد عليهم فيها الكرب، ففرج عنهم بما أمد الله به رسوله من جنود الغيب من الملائكة وغيرهم، وأجلُّ هذه المواطن غزوة بدر، إذ كان المؤمنون في قلة عددية مستضعفة العدة، فأنزل الله تعالى ملائكته مددًا لرسوله ﷺ ممتنًا بذلك على المؤمنين، فقال جل شأنه:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(آل عمران: ١٢٣)

وفي التعبير عن القلة بقوله:

﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ تلميح إلى ما كان عليه المؤمنون من قلة في العدد وضعف في الأهبة بالنسبة إلى ما كان عليه أعداؤهم من وفرة العدد وقوة العدة والأهبة.

وفيه إشارة إلى ما كان يساور أنفسهم من رهبة ملاقاة العدو في عدده وعدته.

وفي التعبير بقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ بما فيه من افتتاح الكلام بأقوى المؤكدات وإسناد النصر لله تعالى، وذكر حال المؤمنين في قلة عددهم وضعف عدتهم التي

لم تكن تؤهلهم في ظاهر حالهم لما تنزل عليهم من النصر المؤزر، الذي لم تكن له أسبابه الظاهرة في مجتمعهم المسلم الناشئ، إشارة إلى أن النصر ليس بالكثرة، وأن عدم الغلبة ليس بالقلة، وإنما النصر بيد الله، يؤتيه من يشاء من عباده.

فلا فخر، ولا مكان للإعجاب بالكثرة ليسند إليها الغلبة، وتسند الهزيمة إلى القلة، والله تعالى يقدم لعباده العبرة في تصاريف أقداره لعلهم يعقلون.

ومن أعجب العجب أن يروي ابن إسحق عن بعض أهل العلم بمكة إسناد هذه الكلمة البشعة (لن نغلب اليوم من قلة) إلى سيد الخلق محمد ﷺ ، فيقول ابن إسحق: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال حين رأى كثرة من معه من جنود الله تعالى: (لن نغلب اليوم من قلة).

وليس العجب من أن يرويها ابن إسحق عن بعض أهل مكة الذي يحتمل أن يكون من الطلقاء الذين دخلوا في الإسلام ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكان رسول الله ﷺ بما جُبل عليه من الرحمة والرأفة يستألفهم لعلهم يهتدون إنقاذًا لهم من عذاب الخلود في الجحيم.

والزمن بين غزوة حنين وفتح مكة لم يكن كافيًا ليفتح مغاليق قلوب هؤلاء المستألفين ويخرجهم من ظلمات العناد ليستقر الإيمان في أفئدتهم استقرارًا مطمئنًا.

وروايــة أن قائل هذه الكلمة الفخـورة بالكثرة المعجبة بها غــلام من الأنصــار، كما قال الزرقاني، أو أن قائلها مســلمة بن وقش الأنصاري ليست بعيدة عن الاحتمال، والأنصار أفرحهم جدًا بفتح مكة، ورأوا أنه أمد الإســلام بقوة فوق قوة ما كان له فــي مجتمع المدينة، فأخذوا عن منهج رســالة الإســلام حينما رأوا كتائــب الجهاد لما صفهم رســول الله ﷺ صفوفًا بعضهم وراء بعــض، فظهرت للعين كثرتهم، وغالــب هذا القائل فرح أشــبه ما يكون بالغفلة والعجب، فقال ما قال على مســمع من رسول الله ﷺ ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وكرهه.

وليــس العجب أن يروي ابن إســحق عن بعض مجاهيل أهل العلم بمكة إســناد هذه الكلمة البشعة المعجبة بكثرة الرجال دون اســتحضار لعظمــة فضــل الله تعالــى في حفاوته برســوله محمد ﷺ ، وإنعامــه عليه وعلى أصحابه بنعمة النصر مع قلة عددهم وضعف عدتهم، ودون استحضار لما كان عليه ﷺ من التواضع لله وهو يدخل مكة فاتحًا مظفرًا منصورًا، فقد أجمعت الروايــات على أنه ﷺ دخل مكــة في جيش عرمرم جرار، وهو يضع رأسه على رحله حتى كانت لحيته تمس الرحل تواضعًا لله تعالى وشكرًا على إنعامه وفضله.

ولكن العجب العاجب أن تذكر هذه الرواية التي لا زمام لها ولا خطــام، ثم ينتهــض بعض أهل العلم كالطيبي في حواشــيه علــى الكشــاف للدفــاع عنها وتأويــل عبارتها تأويلًا متعســفًا

متمحلًا في توجيهها، وهذه التمحلات في تأويل الروايات الباطلة من أخطر ما ابتلي به الإسلام في تراثه الفكري، وماذا على هؤلاء العلماء لو أنهم أهملوا مثل هذه الروايات الباطلة، ولم يكثروا بها على الناس، وليسوا كلهم في طاقتهم فهم هذه التأويلات المتعسفة والتمحلات المتكلفة.

وقد تبع الزرقاني الطيبي وأمثاله، فقال: وعلى فرض صحة أن المصطفى ﷺ قال هذه الكلمة أو الصديق رضي الله عنه، فليس المراد الافتخار، بل التسليم لله، فالمقصود نفي القلة، لا نفي الغلبة، أي إن غلبنا فليس لأجل القلة، بل من الله الذي بيده النصر والخذلان، ونقول للزرقاني: هل يقف أعداء الإسلام عند هذا التأويل، يرضونه جوابًا عن الإشكال الذي قد يؤدي إلى أمر عظيم في حق النبي ﷺ؟

ومما يدخل في دائرة العجب أن الواقدي ـ وليس هو بالنسبة لابن إسحاق بخير الرجلين ـ روى عن سعيد بن المسيب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول لله، لن تغلب اليوم من قلة، وهذه رواية باطلة، ألصقت إلصاقًا بسيد التابعين سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أخص الأخصاء برسول الله ﷺ في أخلاقه وآدابه، وفقهه في الدين وعلمه بأحكام الشريعة، ومعرفته بالله تعالى، فلا يمكن أن يكون هو قائلها لأنها بعيدة كل البعد عن رسوخ الإيمان وقوة اليقين، والصديق منهما في الذروة بعد رسول الله ﷺ.

وأعجب من هذا العجب أن الحافظ العيلم[22] أبو عمر بن عبد البر يجزم بهذه الرواية الباطلة سندًا ومتنًا، وهذا بعيد عن منهج الحافظ ابن عبد البر في معرفته بالروايات ونقدها، ولعل هذا مما أدخل عليه في بعض مؤلفاته، ولا سيما درره، وهو كتاب لطيف موجز، أشبه بفهرست لحوادث السيرة النبوية.

(٢٢) العَيْلَمُ: البحر والمراد الحافظ العلامة. (المجلة)

فرار الطلقاء كان سببًا للهزيمة في الجولة الأولى

قـدَّم رسـولُ الله ﷺ خالد بن الوليـد ـ وكان على قيادة بني سـليم، وأهـل مكة مـن الطلقاء الذين لم يسـتقر الإِسـلام في قلوبهـم اسـتقرارًا مدعمًـا بالمعرفـة والإِخـلاص ـ ومن هؤلاء كان البلاء، وكانت المحنة القاسـية، فقد استقبلهم من هوازن ومـن انضوى إليهـا ما لم يروا مثلـه قط من السـواد والكثرة، وكان ذلـك في غبـش الصبح وعمايتـه، فاسـتقبلتهم كتائب العدو خارجة من مضايق الوادي وشـعابه، وحملوا على مقدمة المسلمين من بني سليم وطلقاء مكة حملة واحدة، فانكشفت خيـل بني سـليم مولية، لتقدم كثير ممـن لا نية لهم في القتال وأكثرهـم من شـباب الطلقاء ومرضى القلوب، وتبعهم سـائر أهل مكـة ممن كان إسـلامه مدخـولًا، وقال بعضهـم لبعض: اخذلوه ـ يعنون رسـول الله ﷺ ـ فهذا وقتـه، فانهزموا وتبعهم الناس وهم لا يشعرون.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين من الوادي، وجعل ينادي فـي الناس: «أيهـا الناس هَلُمَّ إلي، أنا رسـول الله، أنا محمد بن عبد الله».

وعنـد ابن سـعد، وابن إسـحاق، ورواه أحمـد، وابن حبان عن جابر، قال: لما اسـتقبلنا وادي حنيـن انحططنا في جوف واد حطـوط، له مضايق وشـعوب، وإنما ننحدر فيـه انحدارًا، وفي عماية الصبح، وقد كان القوم سـبقونا إلى الوادي فكمنوا

في شعابه وأجنابه، ومضايقه، وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب شدوا علينا، شدة رجل واحد، وكانوا رماة، فانطلق الناس.

هذه الرواية صريحة في أن المسلمين انكشفوا بمجرد التلاقي، وولوا مدبرين كما أخبر الله عنهم، وفي حديث البراء بن عازب ما يخالف هذا، ويفيد أن انكشاف المسلمين وتوليهم مدبرين إنما كان بعد تلاقيهم بالمشركين وقتلهم حتى كشفوهم وأكبوا على الغنائم يجمعونها، فاستقبلهم العدو بالسهام فانكشفوا.

وهذا خلاف جوهري لم نر من وقف عنده للجمع بين الروايتين أو ترجح إحداهما على الأخرى، ونحن نميل إلى ترجيح رواية ابن سعد ومن معه من الأئمة على رواية البخاري، لأن هوازن أعرف بمضايق واديهم وشعابه ومنحدراته، ولعلهم وضعوا أكثر من كمين في هذه المضايق والشعاب، فلما حمل المسلمون على من بدا لهم من كتائب هوازن خرجت الكتائب الأخرى من مكامنها، وكانوا رماة فرشقوا المسلمين بسهامهم، وحملوا عليهم حملة واحدة، فانكشف الطلقاء وتخلخلت صفوف المسلمين بما فاجأهم من الحملة عليهم وولوا مدبرين.

وفي حديث أنس عند البخاري: فأدبروا عنه حتى بقي وحده، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ونادى كتائبه

وأصحابه مذكرًا داعيًا لهم إلى الكرة على العدو، مقويًا عزائمهم بأنه ﷺ رسول الله، وقد وعده الله نصره.

روى الواقدي عن قتادة قال: مضى سُرْعانُ المنهزمين إلى مكة يخبرون أهلها بالهزيمة، فسر بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة، وقال قائلهم: ترجع العرب إلى دينها ودين آبائها، وقد قُتل محمد وتفرق أصحابه، فقال عتاب بن أسيد أمير مكة: إنْ قُتل محمد فإن دين الله قائم، والذي يعبده محمد حي لا يموت، فما أمسوا حتى جاءهم الخبر بنصره ﷺ، فسُر عتاب بن أسيد وكبت الله من كان يسره خلاف ذلك.

وعند ابن إسحاق: لما رأى من كان معه ﷺ من جفاة أهل مكة ما وقع، وتكلم رجال بما في أنفسهم، فقال أبو سفيان بن حرب - وكان إسلامه بعد مدخولًا - لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الأزلام لمعه في كنانته.

وصرخ جبلة أو كلدة بن الحنبل - وهو أخو صفوان بن أمية لأمه - ألا بطل السحر، فقال له أخوه صفوان وهو على شركه لم يسلم بعد: أسكت فض الله فاك: لأن يربني رجل من قريش أحب إلى من أن يربني رجل من هوازن: وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة: اليوم أدرك ثأري، أقتل محمدًا، فأقبل شيء حتى غشي فؤادي، فعلمت أنه ممنوع مني، فالتفَتَ إليَّ ﷺ وتبسم، وعرف ما أردت فمسح صدري وذهب الشك.

كَرَّة صارمة بعد فَرَّة عابرة وجاء الله بالنصر المؤزر

فـي صحيـح مسـلم أنه ﷺ قـال للعبـاس: وناد يا معشـر الأنصار، يا أصحاب السـمرة ـ أي شـجرة الرضوان التي بايعوه تحتها علـى أن لا يفروا حتى يموتوا بين يديه أو ينتصروا على المشركين ـ يا أصحاب سورة البقرة».

وقد التمس الزرقاني رحمه الله حكمة لإدخال سـورة البقرة فـي النداء علـى كتائب الجهاد، فقـال: خُصَّـت بالذكر حين الفرار لتضمنها قوله:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٩)

أو لتضمنها وقوله: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠)

أو لاشتمالها على قوله جل شأنه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧)

وكان العبـاس رضي الله عنه رجلًا صيتًا جهير الصوت، قوي الصرخة: فنادى بما أمره به رسول الله ﷺ، وبلغ نداؤه مسامع المسـلمين، وهم على مسـافات بعيدة، فأقبلوا سـراعًا كأنهم الإبـل إذا حنت علـى أولادها، وهم يقولـون: لبيك، يا لبيك،

حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه وأرسله وأخذ درعه، يقذفها في عنقه، وأخذ سيفه وترسه، يَؤُمّ الصوتَ، وازدحموا على رسول الله ﷺ ازدحامًا شديدًا، حتى كأنه ﷺ في حرجة فقال العباس رضي الله عنه، فلرماح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار، لشدة ما أحاط الأنصار برسول الله ﷺ، وهم يقاتلون عنه، ويمحون ما كان من هفوتهم في التولي عنه ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة على أعدائهم المشركين، فقاتلوهم قتالًا شديدًا جعل رسول الله ﷺ يشرف عليهم مبتهجًا بشجاعتهم وبطولتهم، وقال: «الآن حمي الوطيس» وهذا من أفصح الكلام الذي لم يسمع من أحد قبله ﷺ.

وتناول حفنة من الحصباء بيده الشريفة أو ناولها له عمه العباس أو غيره من أصحابه رضي الله عنهم ورمى بها وجوه الأعداء المشركين وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فهزمهم الله تعالى هزيمة منكرة، فَرَّقت جموعهم وأرسلوا أرجلهم بالفرار لا يلوون على شيء.

ولما أقبل المسلمون بعد فيئتهم على رسول الله ﷺ، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشهب ـ وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل الملائكةَ مددًا، وقتل من قتل من المشركين، وأفاء الله على رسوله أموالهم، وكانت أكثر

أمــوال الغنائم في جميع الغزوات، وفر قائدهم مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه حتى بلغ حصن الطائف ـ أسلم(٢٣) كثيــر من أهل مكة الذين بقيت قلوبهم على وثنيتها وشــركها حين رأوا نصر الله لرسوله وعزاز دينه.

روى الواقدي أن سعد بن عبادة جعل يصيح يومئذ بالخزرج ثلاثًا، وأسـيد بن حضير بـالأوس ثلاثًا، فثابـوا إليهما من كل ناحية، كأنهم النحل تأوي إلى يعسوبها.

(٢٣) جملة (أسلم) هي جواب الشرط الذي تؤسس له كلمة (ولما) في أول الفقرة. (المجلة)

نهي رسول الله ﷺ عن قتل من لم يكن من أهل القتال

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن القتل أسرع في ذراري المشركين قال صلوات الله عليه: «ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية، ألا لا تقتل الذرية» ثلاثًا، فقال أسيد بن حضير: أليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أوليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها».

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن رباح بن ربيع أنه مر هو والصحابة على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة، فوقفوا ينظرون إليها ويعجبون من خلقها حتى لحقهم ﷺ على راحلته، فانفرجوا عنها، فوقف عليها ﷺ فقال: ما كانت هذه لتقاتل فقال لأحدهم: «الحقْ بخالد»، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا، أو امرأة، أو عسيفًا».

وروى الواقدي عن شيوخ ثقيف: مازال ﷺ في طلبنا ونحن مولون، حتى إن الرجل ليدخل حصن الطائف، وإنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة، وروى الواقدي عن مالك بن أوس: حدثني عدة من قومي شهدوا ذلك اليوم، يقولون: لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا يشكو القذى في عينيه، ولقد كنا نجد في صدورنا خفقانًا كوقع الحصى في الطاس، ما يهدأ ذلك الخفقان.

تشابه الموقفين بين أحد وحنين في المحنة والمنحة

وما ذكره الله تعالى في غزوة حنين من انكشاف كتائب المجاهدين في أول ملاقاة العدو، وتوليهم مدبرين عن رسول الله ﷺ، إذ أعجبتهم كثرتهم فركنوا إليها، فلم تغن عنهم شيئًا، وذلك في قوله جل شأنه:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾.

(التوبة: ٢٥)

ثم تَدارُك الله تعالى لهم بفضله، ورجوعهم إلى رسول الله ﷺ مقبلين، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشهب إثر نداء العباس عليهم بما أمره به رسول الله ﷺ من أوصاف الشرف ونعوت البطولة الفدائية المؤمنة، وما عتب الله عليهم من ركوبهم إلى الأسباب المادية في إعجابهم بكثرتهم، وقولهم: لن نغلب اليوم من قلة، وإراءتهم ببصائرهم وأعين أبصارهم أن هذه الكثرة لم تغن عنهم شيئًا، بل كان إعجابهم بها وبالًا عليهم، أذهلهم عن مفاجأة العدو، فلم يثبتوا له، وولوا مدبرين تاركين قائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم سيد الخلق وحيدًا في نحر العدو، إلا من قلة قليلة ثبتت معه من الأبطال الأشاوس من آل بيته الأكارم، وخُلّص خلصاء المؤمنين، وما امتن به سبحانه

عليهم بإنزال السكينة على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وبتنزل جنود الغيب مددًا من الله من الملائكة وغيرهم، ومن تسليطهم على أعدائهم بالقتل والتشريد والإذلال، ثم أذاقهم حلاوة التوبة المنيبة إلى الله معلقًا لها بمشيئته وإرادته لإشعارهم أن الأمر كله لله، ومن ختمه الآيات الكريمات بما غسل به ما علق بقلوبهم، وذلك في قوله عز شأنه:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(التوبة: ٢٦، ٢٧)

كل ذلك يجعل الموقف في حنين أقرب شبهًا بالموقف في غزوة (أحد) في جميع مراحله، وكل ما كان هناك من دروس تربوية للمجتمع المسلم جعلها الله نماذج لإبراز معالم منهج الرسالة الإسلامية الخالدة، وتطبيق رسول الله ﷺ لها تطبيقًا عمليًا، لتكون أسوة لأجيال الإسلام في مستقبل الحياة أينما كانوا من أرض الله، وكيفما كانوا قوة وعلمًا ومعرفة وأدبًا وسياسة ونظمًا اجتماعية إن هم صبروا عليها وأقاموا دعائمها فيما بينهم علمًا وعملًا، يجده المسلم المتفقه في دين الله وسيرة النبي ﷺ باعتبارها منهجًا قويمًا لسير المجتمع المسلم في حياته العملية عليها هنا في غزوة حنين بدءًا

ونهايـة، فهناك في غزوة «أحد» ختمت آيـات العتاب التربوي بالعفو، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾

وهنـا في غـزوة حنين ختمـت الآيـات المعاتبـة بالمغفرة والرحمـة بعد الإشـارة الحكيمـة المحكمة إلـى أن الله تعالى يتوب على من يشـاء، وذلك إطماع في التوبة ليعم كل مسـلم يهفـو ثـم ينيب إلـى الله بالتوبة، فـلا يبقى في قلـب مؤمن أثر لليـأس مـن رحمـة الله، ولا يبقى لهفـوات انطـلاق بغير خطم تزمها عن الجموح في مراتع الشهوات وطواعية الشيطان.

وليـس بعـد عفـو الله ومغفرتـه ورحمتـه وحكمـه مـكان للحديـث عـن أن هذا الفرار الـذي كان إلى توبـة منيبة إلى الله بالنـدم ـ معصية من كبائر الذنـوب أو ليس بمعصية، حتى ولا مـن صغائر الهفوات وتوافه الذنـوب، ولا يعظم ذنب أمام عفو الله، ولا يصغر ذنب أمام جلال الله.

ومـن الغريـب أن يتخـذ بعـض العلماء مناسـبة هـذا العتاب المتلطف في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ ذريعة إلى الحديث عن الفرار من الزحف هل هو من كبائر الذنوب أو ليس من كبائرها.

أقوال العلماء في الفرار من الزحف وهل يدخل فيه الفرار عن رسول الله ﷺ

وقد أطنب بعض المؤلفين في السيرة وفي غيرها، وأطالوا رشاء القول في الخلاف بين العلماء في ذلك، حتى التمس بعضهم الاعتذار عن الفرار هنا في غزوة حنين بأن العدو كان ضعف عدد المؤمنين أو أربى من الضعف، ولا ندري هل كثرة العدو عددًا وعدة تبيح للمؤمنين التراخي عن الجهاد، وتبيح لهم الفرار من وجه العدو إذا كان أكثر منهم بأضعاف مضاعفة؟ ولكنا نعلم علم اليقين أن المسلمين واقفوا الفرس والرومان في وقائع متعددة، وكانت أعداد العدو وعدته أكثر من أضعاف أعداد المسلمين وعدتهم، وقد نصر الله تعالى المؤمنين على قلتهم النسبية على أعدائهم، ففتحوا جميع فارس وجعلوها أرض إسلام وإيمان وعلم ومعرفة، وطهروا أرض العرب في الشام ومصر والمغرب من حشود الروم وحرروها للإسلام ورسالته الخالدة، فلم يقل أحد أن الكثرة العددية في العدو تُقْعِد عن الجهاد، أو تجيز الفرار أمام العدو ليتخذ من بلاد الإسلام ديار استعباد وإذلال.

وذهب أبو جعفر الطبري إلى أن الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية العود، ونقول لأبي جعفر الطبري: كيف يحكم على أمر بأنه منهي عنه أو غير منهي عنه إذا كان مشترطًا فيه معرفة أمر مغيب، تستحيل معرفته إلا بعد وقوعه والإبانة

عنه، والنية أمر مكنون في الصدور لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ارتضى من رسول يعلمه بوحيه ما لم يعلم، وإلا من انطوى عليه صدره ممن نواه وعزم عليه، وليس لدينا أثر صحيح ثابت أن رسول الله ﷺ أخبر عن الفارين بأنهم فروا إلى عود، ولا أن أحدًا من الفارين أخبر عن نفسه أنه فر وهو ينوي العودة.

ثم قال الطبري: وأما الفرار للكثرة فهو كالمتحيز إلى فئة - يعني أنه ليس انهزامًا منهيًا عنه - وهذا كلام لا يستقيم، ولا يقبل، لأنه لم يُذكر له مأخذ من نص، ثم إن الفرار في غزوتي (أحد) و(حنين) كان عن رسول الله ﷺ، وليس وراءه ﷺ فئة يتحيز إليها، فكيف يكون الفرار للكثرة على إطلاقه جائزًا كفرار المتحيز إلى فئة؟

وقال السهيلي في الروض: لم يجمع العلماء على أن الفرار من الزحف من الكبائر إلا في يوم بدر وهو ظاهر قوله:

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الأنفال: ١٦)

ثم أنزل التخفيف في الفارين يوم (أحد) وهو قوله:

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٥)

وكذا أنزل

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ (التوبة: ٢٥)

إلى قوله:

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة: ٢٧)

وهذا كلام غير مسلم على إطلاقه، لأن ما ذكر من الآيات في يوم بدر، مقيد بزمن معين، وهو يوم بدر، كما يفهمه صراحة قوله: «يومئذ»، وكذا ما أنزل يوم «أحد» و«حنين» إنما أنزل في وقائع معينة لقوم معينين، وهم الذين شهدوا «أحدًا وحنينًا» وفروا ثم فاءوا، وليس في النص ما يشعر بالعموم الشمولي الذي يتعداهم إلى غيرهم، وهؤلاء عوتبوا ثم شرفوا بالعفو والمغفرة والرحمة، فلا تصلح هذه الآيات أن تكون بناء لقاعدة لكون التولي يوم الزحف من كبائر الذنوب، وإنما مأخذ ذلك من حديث رسول الله ﷺ الثابت عنه حين سئل عن الكبائر فذكر منها ـ في بعض الروايات الصحيحة ـ التولي يوم الزحف.

وقد حاول ابن القيم رحمه الله أن يبين حكمة ما وقع في حنين من المحنة، ثم الكرة بعد التولي، والنصر بعد الهزيمة في أسلوب مطنب، كما حاول من قبل في غزوة «أحد» إبراز ما كان في محنتها من دروس تربوية للمجتمع المسلم، وحكم إلهية ترشد المؤمن إلى أنه تعالى أنزل رسالة الإسلام الخالدة لتكون منهجًا سلوكيًا لحياة الأمة الإسلامية في قيادتها الإنسانية، وقد ذكرنا منه في مناسبته ما استدعى المقام ذكره.

وقال هنا في «الهدي النبوي» ونقله عنه بشيء من التصرف القسطلاني في مواهبه وعلق عليه شارحها الزرقاني.

كان الله تعالى قد وعد رسول الله ﷺ إذا فتح مكة أن يدخل الناس في دين الله أفواجًا - يشير ذلك إلى سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ (النصر: ١، ٢)

فالفتح في السورة فتح مكة - ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتأهبوا لحربه عليه الصلاة والسلام ليظهر أمره تعالى، وإتمام إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانًا لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون قبلها مثلها، قال الزرقاني في الكثرة وشدة البأس - وغاية ما لقوا في «أحد» ثلاثة آلاف، وكان لهم الظفر ابتداء، لكن لما خالف الرماة موقفهم الذي أمرهم ﷺ بعدم مفارقته استشهد من استشهد إظهارًا لأنه لا ينبغي مخالفته ﷺ في أمر ما، وغاية ما لقوا في الخندق عشرة آلاف.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ (الأحزاب: ٢٥)

وأما هؤلاء فكانوا أضعاف المسلمين - ولا يقاومهم بعد أحد من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولًا مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عَددهم وعُددهم وقوة شوكتهم ليطامن رءوسًا رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه

بتواضع كما دخل عليه الصلاة والسلام، فابتلوا بقصة حنين، منعًا لهم من إظهار الترفع، وتنبيهًا لهم على أن المطلوب منهم التواضع، وإظهار الشكر كما فعل ﷺ في دخوله، واضعًا رأسه منحنيًا على مركوبه، تواضعًا لربه، وخضوعًا لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله، ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلب اليوم من قلة أن النصر إنما هو من عند الله، بفضله، وأن من ينصره فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتم بها، فإنها لم تغن عنكم شيئًا فوليتم مدبرين.

فلما انكسرت قلوبهم أرسلت خِلع الجبر مع بريد ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦)

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن خِلع النصر وجوائزه إنما تفاض على أهل الانكسار، قال الله تعالى:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (القصص: ٥، ٦)

وافتتح الله تعالى غزو العرب بغزوة بدر، وختم غزوهم بغزوة حنين، ولهذا يجمع بينهم فيقال: غزوة بدر وحنين.. ورمى فيهما رسول الله ﷺ وجوه المشركين بالحصى، وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ فالأولى خوفتهم وكسرت من حدهم، والثانية استغرقت قواهم،

واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله، وجبر الله أهل مكة بهذه الغزوة، وفرحهم بما نالوا من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من المحنة، وإن كان عين جبرهم وتمام نعمته تعالى عليهم بما صرفه عنهم من شر من كان يجاورهم من أشرار العرب وهوازن وثقيف بما أوقع بهم من الكسرة، وبما قيض لهم من دخولهم في الإسلام، ولولا ذلك ما كان أهل مكة يطيقون مقاومة تلك القبائل من شدتها.

ثم أمر رسول الله ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، وفي هؤلاء قائد هوازن مالك بن عوف في جماعة من أشراف قومه، فإنهم لما انهزموا وقف مالك بن عوف على ثنية في شبان أصحابه فقال لهم: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم، ويتتام آخركم، فبصر بهم الزبير بن العوام، فحمل عليهم حتى أهبطهم من الثنية، وهرب مالك بن عوف إلى الطائف، وبعضهم انتهى في فراره إلى نخلة، فتبعتهم خيل المسلمين.

وروى البزار عن أنس بن مالك قال: لما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة في ست مئة نفس على أكمة، فرأوا كتيبة، فقال دريد: خلوهم لي، فخلوهم، فقال هذه قضاعة ولا بأس عليكم منهم، ثم رأوا كتيبة مثل ذلك، فقال هذه سليم، ثم رأوا فارسًا وحده، فقال دريد: خلوه لي، فقالوا: معتجر بعمامة سوداء فقال هذا الزبير بن العوام، وهو قاتلكم ومخرجكم من

مكانكـم هذا، فالتفـت الزبير فرآهم فقال: عـلام هؤلاء هنا؟ فمضـى إليهم، وتبعـه جماعة مـن المجاهدين، فقتلـوا منهم ثـلاث مئة، وحز رأس دريد بـن الصمة، فجفلوا بين يديه، وفي قتل دريد رواية أخرى مشهورة، ولكن رواية البزار أقوى سندًا.

واستشـهد من المسـلمين أربعة، وقتل من المشركين أثناء النـزال أكثـر من سـبعين، وقيل أن هـذا العـدد كان من ثقيف وحدها.

روى البيهقـي عن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال: قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل من المسلمين يوم بدر.

طلب فُرَّار هوازن وثقيف

كان رسـول الله ﷺ بعد فراغـه من وقعة حنيـن -بانتصاره على حشـود هـوازن وثقيـف انتصـارًا رعبل جموعهـم، وبدد كثرتهم، وأذلَّ غرورهم، وأرغم معاطسـهم، وشـتت شملهم، ففـرَّ منهم من وجد للفـرار فرصة، وتفرق هـؤلاء الفارون بين الوديـان والشـعاب وقمم الجبـال ورءوس التلال، ومنهم من ذهـب إلـى الطائف مع فُـرَّار ثقيـف، وكانوا كلهـم مفزعين، مرعوبين- قد أمر بطلب فلول المنهزمين، وتتبع الفرار خشية أن يتجمعـوا لحربه مرة أخرى، فبعث أبا عامر الأشـعري، عم أبي موسى (عبد الله بن قيس الأشعري) المشهور بين الصحابة بعلمـه وفضله، إلى الذيـن فروا إلى وادي (أوطـاس) وهو وادٍ قريبٌ من وادي حنين حتى كان يعد أنه هو.

وإلـى هذا الرأي ذهب القاضي عيـاض رحمه الله، فقال: هو موضـع حرب حنين، هكذا نص عبارتـه بلفظ (حرب) بالحاء المهملة، ولكن الحافظ ابن حجر لم يرتضِ قولَ عياض، ورجح عليـه قول غيره، فقـال: وهذا الذي قاله ذهـب إليه بعض أهل السـير، والراجحُ أن وادي أوطـاس غير وادي حنين، ويوضحه مـا ذكره ابـن إسـحاق: أن الوقعة كانت فـي وادي حنين، وأن هـوازن لما انصرفـوا صارت طائفـة إلى الطائـف، وطائفة إلى نخلـة، وطائفة إلى أوطاس، قـال الزرقاني: هكذا في الفتح عن عياض (حرب) بالحاء المهملة، وهكذا يأتي اعتراض الحافظ

على عياض، وتصحف على من قرأ (قرب) بقاف، وأجاب ابن حجر بأنه لا يخالف الراجح؛ لأن غاية ما فيه أنه مع مغايرته لحنين قريب منها.

وهذا خلاف ليس تحته كبير طائل إلا ما فيه من التحري والدقة التي لو بذلت في فقه متون الأحاديث لكان فيها أعظم ما يقدم من خدمة للسنة النبوية؛ لأن الاحتمال يمكن أن يكون متسعًا لقبول كل من القولين، فالقاضي عياض رحمه الله يقول مع أهل المغازي والسير: إن أوطاس هو الوادي الذي وقعت فيه حرب حنين، ويؤيد ذلك قول دريد بن الصمة إذ سأل أشراف هوازن فقال لهم: بأي واد أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال دريد: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، فهذا قول بيِّن أن الوقعة كانت بأوطاس وهي حرب حنين.

ويحتمل أن حنينًا واسع الأرجاء متباعد الأكناف، يشمل في بعض جوانبه وادي أوطاس، وكانت فيه الوقعة، ولا ينافي هذا قول عياض: هو موضع حرب حنين، على معنى أنه ميدانها من حُنين، وهذا عندنا أرجح.

أما الحافظ ابن حجر رحمه الله فإنه تأثر بقول ابن إسحاق في ذكره تعدد المواضع التي ذهب إليها فُرَّار هوازن وثقيف، وذكر منها أوطاس، فظن الحافظ ابن حجر أن أوطاس خارج عن حنين، فاعترض على عياض ورجح على قوله قول غيره، مع أن كلام ابن إسحاق لا ينافي أن أوطاس جانب من جوانب حنين،

فيرجع قول ابن إسحاق الذي جعله الحافظ توضيحًا لما ذهب إليه من التغاير بين حنين وأوطاس إلى قول عياض.

ومن قرأ من أهل العلم عبارة عياض بلفظ (قرب) بقاف بدل لفظ (حرب) بحاء مهملة لم يصحف، ولكنه أراد التفسير والبيان بأن موقع حرب حنين أي ميدانها هو قرب حنين، أي في جانب من جوانب حنين.

وصدع أبو عامر الأشعري بأمر النبي ﷺ وسار بكتيبته المجاهدة إلى هؤلاء الفرار حتى لقيهم بأوطاس مجتمعين، فقاتلهم، وقتل منهم تسعة إخوة مبارزة.

وفي حديث أبي موسى عند الطبراني قال: لما هزم الله المشركين يوم حنين بعث ﷺ على خيل الطلب أبا عامر وأنا معه، فقتل سلمةُ بن دريد بن الصمة أبا عامر، فعدلتُ إليه فقتلته، وأخذت اللواء مستخلفًا من أبي عامر، فقاتل أبو موسى المشركين حتى هزمهم وظفر بغنائمهم وسباياهم.

قصة الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة

وكان في السبي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، ولم تجد بين سائقي السبي من يعرفها، وقد أتعبها في السير من كان يسوق بالسبايا، فقالت لهم الشيماء متوددة مستعطفة: تعلموا أني أخت صاحبكم -تعني رسول الله ﷺ- من الرضاعة! فلم يتقبلوا كلامها بتصديقها فيما قالت؛ لأنه لم يكن معها من الدلائل والقرائن ما يشعرهم بشيء مما قالت، وساروا بالسبي يعنفون في سيرهم المطنب، والشيماء قد ركنت إلى الصبر والاستسلام متحملة نصيبها من مشاق السير ومتاعبه حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إني أختك -أي من الرضاعة- وكان العهدُ قد طال، والزمن قد أسرع المرور، والأحداث توالت وتراكمت، والصغير قد كبر، والمعالم تغيرت، واختفت شواهد وخلفتها شواهد، فلم يستحضر رسول الله ﷺ من أحداث رضاعه في بادية بني سعد الأمور الخاصة بحياته الشخصية في إبان طفولته، فلما أخبرته الشيماء بهذا الخبر الطريف الغريب أراد أن يتثبت من صحة إخبارها، فقال لها مستطلعًا ما عندها من القرائن والدلائل: «وما علامة ذلك؟» أي ما علامة أنكِ أختي من الرضاعة، والزمن بعيد، والأحداث متكاثرة متتابعة؟ فقالت الشيماء مبرهنةً على صدقها فيما ادعت: علامة ذلك عضةٌ عضضتَنيها في ظهري وأنا متوركتك، فذكر رسول الله ﷺ ما كان منه إليها وهي تحمله طفلًا، ولعلَّ هذه العضة كانت من مداعبات الطفولة،

وكانـت مظهرًا مـن مظاهر قوة المداعبة التـي لعلها كانت ردًا على مداعبةٍ منها إليه ﷺ ، فرد عليها مداعبتها بأشـد مما كان منها إليه حتى أبقت مداعبته ﷺ أثرها في بدنها ؛ ليكون لهذا الأثر شـأنٌ يجعله آيةً من آيات أحداث النبوة وحوادث الرسـالة بعد زمن مديد .

ولما ذكر رسـول الله ﷺ هذا الحـدث الطريف في أحداث طفولتـه وعرف ما ذكرتـه له فكان علامة واضحة - بسـط لها رداءه إكرامًـا لهـا ، وأداءً لحـق صلتها القربى ومـا كانت تقوم به نحوه ﷺ ، وأجلسـها عليـه احتفاء بذكريـات الماضي في شـخصها ، ورحَّب بها ، وأخرجها من ضوائق السـبي ، ودمعت عينـاه ﷺ رقةً لهـا ، وعرفانًا لشـأنها ، وتذكرًا لأيـام الماضي المشـرق بنور الإعداد الإلهـي والتربية الربانيـة ، لما كتب له فـي كتـاب الغيب من جلال الرسـالة الخاتمة الخالـدة وهداية الإنسـانية إلى معرفة خالقها مقيمـة لموازين العدل فيما بينها أفـرادًا وجماعـات ، وهاهـو ذا ﷺ فـي يومـه الذي يـرى فيه أختـه من الرضاعة تخاطبه فتقول له : إني أختك ، ويسـتعلمها عـن علامة يذكر بها صـدق قولها ، فتخبـره ، فيذكر ويكرمها ويرحب بها ، ويقول لها ﷺ مخبرًا مواسيًا آسيًا لجراحها : «إن أحببت فعندي محببـة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلـى أهلك» فتقول الشـيماء : بـل تمتعني وتردنـي إلى قومي ، وأسـلمتِ الشـيماءُ ، وأعطاها رسـول الله ﷺ غلامًـا وجارية ، فزوجـت الغـلام بالجاريـة ورزقهما الله نسـلًا من هـذا الزواج المبارك ، فلم يزل في بني سعد من نسلهما بقية .

وقال رسول الله ﷺ للشيماء تحقيقًا لرغبتها في الرجوع إلى قومها آمنة مطمئنة ممتعة: «ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك» وكانت الجعرانة محبس سبي هوازن، حبسه ﷺ فيها مستأنيا بهوازن لعلها تثوب إلى الإسلام وتجيء مسلمة فيرد سبيها، ثم قال ﷺ للشيماء زيادة في طمأنتها: «إني أمضي إلى الطائف» فرجعت الشيماء مكرمة إلى الجعرانة لتكون مع قومها من الأسارى والسبايا، حتى وافاها رسول الله ﷺ بالجعرانة، وأعطاها فوق ما أعطاها من قبلُ نَعَمًا وشاءً لها ولمن بقي من أهل بيتها.

هذا الموقف النبيل الكريم -الذي وقفه رسول الله ﷺ من الشيماء أخته من الرضاعة وقد جيء بها إليه ﷺ سبية في سبايا قومها هوازن، فتعرفت له ﷺ فعرفها- يمثل جانبًا جزئيًا في منهج الرسالة الخالدة، ذلك هو منهج التلطف الأكرم، والحفاوة العاطفة بمن زلفت به قدم الحياة ومجريات المقادير، وهو حريٌّ بما كان له من صلات عاطفية، وروابط إخاء وَدُود، أن يكون في منزلة الشمول بالإكرام والحفاوة، وقد تكشفت أغطية الغيب بعد طول المدى عن تحقيق ما كان قد فوته الزمن بمروره السريع الطويل، ونالت الشيماءُ من الإكرام والحفاوة ما لم يكن لها ولا لقومها في الحسبان.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري، قال: لما فرغ ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي أبو عامر دريد بن الصمة، وقتله، وهزم الله أصحاب دريد.

وهذه الرواية المخرجة في أصح الصحيح سندًا تتعارض

مـع الرواية التي تزعم أن قاتل دريد هـو الزبير بن العوام، التي سـقناها فيما سـبق عن روايات أصحاب المغازي والسير، ولا شك أن رواية البخاري هي الراجحة بل هي الصحيحة.

قـال أبو موسـى رضـي الله عنه: وبعثني ﷺ مـع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه رجل بسهم فأثبته في ركبته، قال أبو موسـى: فانتهيـتُ إلى أبي عامر، فقلـتُ: يا عم من رماك؟ فأشـار إليَّ، فقال: ذاك قاتلي الذي رمانـي، فلحقته، فلما رآني ولَّى، فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف، فقتلته ثم قلت لأبي عامر: قتل الله قاتلك، فقال أبو عامر لأبي موسى: فانزع مني السهم، فنزعته فنـزا منه المـاء[٢٤]، فقال أبو عامر لأبي موسـى: يـا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ السـلام وقل له يستغفر لي، ثم مات أبو عامر، فرجعـت فدخلت على النبـي ﷺ في بيته على سـرير مرمل، وعليـه فـراش قـد أثر رمال السـرير بظهـره وجنبـه، فأخبرته بخبرنـا، وخبر أبـي عامر وأنه قال: قل له: يسـتغفر لي، فدعا رسـول الله ﷺ بماء فتوضأ، ثم رفع يديـه، وقال: «اللهم اغفر لعبيد» -هكذا دون إضافة إلى شـيء وهو اسم أبي عامر- (أبي عامر) ورأيتُ بياض إبطيـه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فـي الجنة فـوق كثير من خلقك» قال أبو موسـى: فقلت: ولي اسـتغفر، قال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا»!!

(٢٤) أي نزل وجرى. (المجلة)

التشديد في النهي عن الغلول

لما استسلمت هوازن بجموعها المهزومة، وفرَّ من رجالها من فرَّ إلى الطائف ودخلوا مع ثقيف في حصنهم؛ أمر رسول الله ﷺ بجمع السبي والغنائم وجعلهما في الجعرانة، وأقام على حراستهما، والقيام بشئونهما مسعود بن عمرو الغفاري، وقيل: بديل بن ورقاء الخزاعي. روى الطبراني عن بديل أنه قال: أمر رسول الله ﷺ أن تُحبَس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم، وكان ﷺ قد مضى إلى الطائف، ثم أمر مناديًا ينادي في الناس: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَغُلَّ» وشدد في النهي عن الغلول والخلس من هذا المال بما لا يُعلَم أنه شدد بمثله في شيء أُخِذ بغير حله.

روى الإمام أحمد، وابن ماجه، والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أخذ يوم حنين وَبرةً من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين أصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، وإياكم والغلولَ، فإن الغلول عارٌ ونارٌ وشنارٌ على أهله في الدنيا والآخرة».

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفًا شديدًا، فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله

أخذت هذه الوَبَرة لأخيط بها برذع بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك» فقال الأنصاري: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها فرمى بها من يده.

وأخرج عبدالرزاق في مصنفه من طريق زيد بن أسلم، عن أبيه أن عقيل بن أبي طالب دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطخ دمًا، فقال لها: دونكِ هذه الإِبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئًا فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإِبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم.

هذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه - يمثل معلمًا من أهم معالم منهج رسالة الإسلام في التربية السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في حياته العملية إيمانًا وأمانة؛ لأن هذا النهي المتعمق في تقبيح الغلول إنما يقصد به النبي ﷺ تطهير المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة؛ لأن التساهل في صغير الخيانة يسوق إلى كبيرها، والخيانة أرذل رذائل السلوك الإنساني.

ولهذا كانت استجابة الذين تساهلوا فغلوا بعض المحقرات من الغنائم سريعة قاطعةً لدابر هذه الرذيلة في السلوك الإسلامي، تطهرًا مما عساه أن يتسلل في رغائب بعض الأفراد، فتكبُر معه

الاستهانة في صغائر المحقرات، فتمتد بين أيدي المستهينين إلى الكبير والصغير، وإلى ما له قدر بعد الحقير الذي لا قدر له، ثم يتأصل هذا المسلك المعيب، ويصبح عند من لا يرعوي خُلُقًا يفسد على المجتمع المسلم حياته الاجتماعية وتربيته الخلقية التي جاءت رسالة الإسلام لتطهر مجتمعها من أدرانه وتقيمه على دعائم استقامة السلوك، حتى تأخذ كل فضيلة إنسانية مكانها من خلائق المسلم، ثم لا تجد الرذائل وراءها مكانًا تفرغ فيه سمومها، وبهذه التربية السلوكية يصبح المسلم نموذجًا حيًا لمعالم منهج رسالة الإسلام، يتحرك بين أرجاء الحياة بفضائله الإنسانية في أشخاص المسلمين أفرادًا وجماعات، قدوة للذين يريدون الحياة الفاضلة في أكمل وأجمل مثلها الإنسانية.

ضخامة غنائم هوازن وقدوم وفدهم بإسلامهم

ولقد كانت غنائم هوازن شيئًا كثيرًا غامرًا، عرف منه فيما عَرف العادون المحصون أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، إلى ما كان مع ذلك من البقر والحمير مما لا يُعرَف عدده، كما يدل عليه قول دريد بن الصمة، وهو يحاور قائد حرب هوازن مالك بن عوف -وكان مالك قد حشد كل أموال هوازن وراء جيوشها ونسائها وأبنائها من الأطفال-: ما لي أسمع نهاق الحمير وخوار البقر، وإنما لم يذكر ذلك في إحصاء الغنائم؛ لأن البقر والحمر لم يكونا من أصول أموال العرب التي يتكاثرون ويتفاخرون بها.

وفي المواقف التي تشيع فيها الفوضى والدهش يغيب عن الإحصاء ما لا يقل عما أُحصِي وعرف، وطبيعة أرض العرب، ولا سيما منازل هوازن ببطونها الكثيرة وجبالها ووديانها وكهوفها ومغاورها وشعابها ومتعرجاتها ما يسهل تغييب الكثير من الناس والمال فلا يعرف ليحصى، والمقصود أن غزوة هوازن أفاض الله تعالى فيها من فضله وخيره وبركاته على المسلمين ما لم يكن له مثيل قط في غزوة من الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه في حياته المباركة، وقد استأنى رسول الله ﷺ بهوازن وانتظرهم قبل أن يتصرف فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من أموالهم وسبيهم وذراريهم بالقسمة في مستحقيها من المجاهدين، أو بما يراه ﷺ لصالح الإسلام والمسلمين بضع عشرة ليلة، ظل فيها هذا المال الكثير الضخم محبوسًا في

الجعرانـة، رجاء منـه ﷺ أن تقدم هوازن مسـلمة، فلم يقدموا، فقسم الأموال إثر عودته من الطائف بعد حصارها الأول.

ثم ألقى الله نور الإسـلام في قلوب هوازن فاهتدت، وقدمت وفودها وأشرافها على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين، ولكن قدومهـم كان بعـد أن قسـمت غنائمهم من الأموال والسـبايا والأطفـال على جنـود الله من المجاهدين، وملـك كلٌّ ذي حقٍّ منهم حقَّه، وأسرعوا التصرف في الأموال.

وقام أشـراف هوازن يسـألون رسـول الله ﷺ أن يرد عليهم سـبيهم وأموالهم، فقالوا يستعطفونه ﷺ، ويستنزلون مكارم أخلاقه من عليا فضائله: يا رسـول الله، إنا أهلٌ وعشـيرةٌ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامننْ علينا منَّ الله عليك.

ثـم قام زهيـر بن صرد، وهو أحد أشـراف بني سـعد الذين أرضعـوا رسـول الله ﷺ وهم بطن مـن هوازن، فقـال زهير: يا رسـول الله، إنما في الحظائر عماتـك، وخالاتك، وحواضنك اللاتـي كُنَّ يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شـمر، أو للنعمـان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلتَ به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين.

ثـم قـال زهيـر مسـتزيدًا فـي اسـتعطاف رسـول الله ﷺ واستجلاب رأفته:

امنن علينا رسـولَ الله في كرم
فإنـك المـرء نرجـوه وندخر
امنـنْ على بيضة قد عاقها قدر
ممزق شـملها في دهرها غِيَرُ

رسول الله ﷺ يخيّر هوازن بين أبنائهم ونسائهم وبين أموالهم

فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله خيَّرْتَنا بين أحسابنا وأموالنا، بل تردُّ علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا.

وفي روايةٍ أن النبي ﷺ قال لهم: «معي من ترون» يريد ﷺ أصحابه المجاهدين معه الذين نصرهم الله على حشود هوازن، وتجمعاتهم الهائلة، ليشعر القوم أن الأمر بين المسلمين شورى، وأن هؤلاء المجاهدين قد أصبح لهم حق فيما ملكت أيديهم من هذه الأموال والسبايا بعد قسمها بينهم، وقد حاز صاحبُ كل حق حقه فلا يؤخذ إلا برضائه.

ثم قال رسول الله ﷺ لأشراف هوازن مبينًا أن إسلامهم كان أحبَّ إليه من أموالهم وسباياهم: «وقد استأنينا بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمتُ السبي، فاختاروا: إما السبي، وإما المال» فاختاروا السبي، فكلم أصحابه في رد سبيهم عليهم، وبدأ ﷺ بنفسه وخاصة أهله وأقاربه وقال لأشراف هوازن يلقنهم ما يبلغون به رضا المسلمين من التوسل به ﷺ إلى المسلمين، والاستشفاع بالمسلمين إليه لرد سبيهم عليهم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو

لكم، فإذا أنا صليت بالناس، فقولوا: «إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم» فلما صلَّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قام أشراف هوازن، فتكلموا بالذي أمرهم به رسول الله ﷺ من استرضاء المسلمين واسترحامهم لرد ما ملكوه بالقسمة من السبي، فبادر رسول الله ﷺ إلى ما وعدهم به من المكارم، ليقتدي به أصحابه رضي الله عنهم فقال: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فأسرع المهاجرون فقالوا: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقفاهم الأنصارُ فقالوا: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت بنو سليم مراغمة لرئيسها عباس بن مرداس بمثل ما قال خُلَّصُ المسلمين من المهاجرين والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله، فقال لهم زعيمهم ابن مرداس: لقد وهَّنتموني، فلم يعبئوا بقوله، ومضوا مع الخيِّرين الأصفياءِ.

وخالف منهج المكارم التميميون، فاتبعوا رئيسهم الأقرع بن حابس في ضنه، بما عنده وعند قومه، وقفاه سائرًا على طريقته في الشح بما عنده وعند قومه عيينة بن حصن الفزاري، وتبعه قومه، وكان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري متلازمين مقترنين، وكانا إلى ذلك الحين ممن يُزَنُّ بضعف الإيمان. ولا سيما عيينة بن حصن.

فلما رأى رسول الله ﷺ هذا التدلي إلى مواطئ الضن الشحيح من هذين الرجلين أراد أن يستصفي النفوس لتسمح بالبقاء صفًا واحدًا، وتدخل ساحة المكارم، فقال ﷺ: «أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان ست فرائض -أو قلائص- من أول مال نُصيبه»، فطابت نفوس من كان مخالفًا وردَّ المجاهدون على هوازن سبيهم من النساء والذراري.

وقد كان المسلمون المجاهدون المثل الأعلى في الورع والتقوى، ونظافة الضمير والمبادرة إلى الاستجابة لشفاعة رسول الله ﷺ، ففي حديث عبد الله بن عمر عند ابن حميد، قال: أعطى رسول الله ﷺ، عمر بن الخطاب جاريةً من سبي هوازن، فوهبها لي، فبعثتُ بها إلى أخوالي من جمح ليصلحوا لي منها حتى أطوف بالبيت، ثم آتيهم، وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعتُ إليها، فخرجتُ من المسجد حين فرغتُ، فإذا الناس يشتدون فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: ردَّ علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا، فقلت: تلكم صاحبتكم في بني جمح، فاذهبوا فخذوها، فذهبوا فأخذوها.

وقد أوقع الله عيينة بن حصن في هاوية شحه وضنه، فأخذ عجوزًا من عجائز هوازن وأبى عليه شرهُه أن يردها بما قال رسول الله ﷺ بست فرائض أو قلائص، طمعًا في أن يساوم

عليها قومها، وقال: هذه عجوز وهي أم الحي، لعلهم يغلون في فدائها، وفي رواية الطبري: أرى عجوزًا وأرى لها في الحي نسبًا، وعسى أن يعظم فداؤها، فقال زهير بن صرد السعدي الهوازني: خذها عنك فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا درها بماكد، ولا زوجها بواجد، فلما يئس من الالتفاف إليها، وتُركت له محقرةً، ردَّها بست فرائض، فشكا حاله وخيبة أمله إلى صاحبه الأقرع بن حابس فلم يُشكِه الأقرعُ بشيء يخفف من آلامه، بل زاده وخزًا وتقريعًا وتسفيهًا لرأيه، فقال له: إنك والله ما أخذتها بكرًا غريرة، ولا نصفًا وثيرة.

إسلام مالك بن عوف ومجيئه إلى رسول الله ﷺ لتلطفه به ووعده بإكرامه

ثم سأل رسول الله وفدَ هوازن عن مالك بن عوف قائد حرب هوازن، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروا مالكًا أنه إن أتاني مسلمًا رددتُ عليه أهله وماله، وأعطيتُه مائةً من الإبل» فأُتِي مالك بقول النبي ﷺ ووعده الصادق، فخرج مالك من الطائف ليُلقي بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ مسلمًا مستسلمًا، وكان مالك قد خاف ثقيفًا على نفسه إذا علموا أن رسول الله ﷺ أرسل إليه بوعده أن يضفي عليه من مكارمه ما يأسو به جراحه، فاحتال للخروج من حصنهم، والتفلت من سلطانهم وحصارهم الذي ضربوه عليه، وأمر براحلته فهيئت له، وخرج من الطائف متخفيًا بظلام الليل حتى أتى رسولَ الله ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه رسول الله ﷺ أهله وماله، وأعطاه مئة من الإبل، وأسلم مالك فحسن إسلامه، واستعمله رسول الله ﷺ على قومه، وعلى من أسلم من القبائل التي كانت حول الطائف، فكان مالك يقاتل بقومه وبمن آمن معهم ثقيفًا، فلا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم مسالك الحياة، وكان عمله هذا تمهيدًا لغزو ثقيف وحصارها واستسلامها، وكان مجيء مالك بن عوف إلى رسول الله ﷺ نهاية أحداث غزوة حنين، وإسلام هوازن، وقد عاد النبي ﷺ إلى مدينته المنورة مظفرًا

منصورًا واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم لنا فيئنا من الإبل والغنم حتى ألجئوه إلى شجرة خطفت رداءه، فقال ﷺ: «ردوا عليّ ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلًا، ولا جبانًا ولا كذابًا».

وقد سمت مكارم رسول الله ﷺ في الجود بهذا المال الكثير الغامر الذي يعجز الإحصاء عن حصره إلى ذروة الذُّرا في الفضائل الإنسانية، فلم يُنِلْ نفسَه الشريفةَ من هذه الغنائم شيئًا، حتى الخمس الذي جعله الله تعالى له حقًا خالصًا ينفقه فيما يرى من مصالحه ومصالح المسلمين وإيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل رده على عامة الناس، كما أنه ﷺ لم يُنِلْ خواص أصحابه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن رسخ إيمانهم وصفا يقينُهم، فأنفقوا أموالهم وثرواتهم في سبيل الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الهدى وإقامة معالم الدين الحق منالًا، ولكنه ﷺ جعلها كلها على ضخامتها وكثرتها في استئلاف قلوب الذين لم يُسلموا أو الذين أسلموا ولم يخلص إيمانهم من شوائب الريب والبأو الجاهلي، وإشفاقًا عليهم أن تتخطفهم الشياطين فتكبهم في النار على مناخرهم، وكان هؤلاء المستألفون أشرافًا من أشراف جاهلية قريش وغيرها من قبائل العرب.

فأعطى ﷺ المئين من الإبل والعديد من أواقي الفضة لأفراد من هؤلاء المؤلفة، وأعطى أقوامًا دونهم دون ما أعطاهم، بل

أعطى بعض الأفراد ما لا يُعرَف إحصاؤه، ولكنه كان شيئًا من الإبل والغنم يملأ واديًا.

ذكر الواقدي أن صفوان بن أمية طاف مع رسول الله ﷺ قبل أن يسلم يتصفح الغنائم إذ مرَّ بشعب مملوء إبلًا وغنمًا، فأعجب هذا الوادي بما فيه صفوان، وجعل ينظر إليه، فقال له النبي ﷺ: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟» فقال صفوان: نعم، فقال له ﷺ: «هو لك بما فيه» فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد إلا نبي. ومن حديث صفوان في الصحيحين أنه قال: ما زال يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليّ حتى ما خلق الله شيئًا أحب إليّ منه، وفي رواية مسلم أنه ﷺ أعطى صفوان بن أمية مئة من الإبل، ثم مئة، ثم مئة، وفي هذا بيان لقوله في الرواية الأولى: ما زال يعطيني، وعند ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث أن قائلًا من أصحاب رسول الله ﷺ قال له: أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس مئة، مئة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري؟ فقال ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض، كلهم مثل عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه».

وقد ذكر أهل المغازي وأرباب السير أنه ﷺ كسا كلَّ واحد من السبي قبطية، ونقل بعض أصحاب السير عن مغازي ابن عقبة أن النبي ﷺ كسا السبي برودًا هجرية.

لطيفة من المكارم النبوية وكشف ما فيها من تلطف

ومن لطائف المكارم النبوية التي ذكرت في هذا المقام أن رجلًا من الصحابة الذين شهدوا حنينًا قال: إني لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي، وفي رجلي نعل غليظة إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ، ويقع حرف نعلي على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته، فقرع قدمي بالسوط وقال: «أوجعتني، فتأخر عني» فانصرفت، فلما كان الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني، فقلت: هذا والله لما كنتُ أصبتُ من رجل رسول الله ﷺ بالأمس، فجئته وأنا أتوقع فقال لي: «إنك قد أصبت رجلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتُك لأعوضك منها» فأعطاني ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني.

في هذه القصة اللطيفة موضع للتأمل الفكري، ومنزل من منازل السلوك التربوي بما حوته من تصرفٍ جمع ألوانًا من دروس التربية والتأديب، ثم انتهى إلى الرحمة المشفقة ملفوفة في نسج من الإِحسان الأكرم والإِنعام الرحيم.

فهذا رجل من عامة الصحابة لم تُعرَف له خصيصة القرب من رسول الله ﷺ في مماشاته، ولكنه لمَّا كان يرى من سهولة أخلاقه ﷺ اقترب منه حتى زاحمت ناقتُه ناقتَه، والركب يعج بالحشود الهائلة من كتائب الجهاد، ومعها ركائبها وأسلحتها وأمتعتها، وهي تسير في لجة ورجة مدوية شديدة اختلاط

الأصوات، وزاحم الرجل في مماشاته رسول الله ﷺ فوقع حرف نعل الرجل الغليظة على ساقه ﷺ فأوجعته، فكان من حسن التربية والتأديب الاجتماعي، وحكمة السياسة التعليمية أن ينبه ﷺ هذا الرجل الذي تخطَّى مكانه الاجتماعي في الركب حتى ماشى رسولَ الله ﷺ ، فزحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ في مماشاته حتى وقع حرف نعله الغليظة على ساق رسول الله ﷺ فأوجعته، وكان رسول الله ﷺ رقيق البشرة، سويَّ المزاج، لم يألف هذا اللون من المزاحمة الذي خلا من أبسط صور الأدب الاجتماعي، وإن كان غير مقصود، وفي تعبير الرجل عن وقع حرف نعله الغليظة على ساق رسول الله ﷺ بلفظ «فأوجعته» دلالة على إحساس الرجل بأن وقع حرف نعله الغليظة على ساقه ﷺ كان شديدًا مؤلمًا، وقد أبان ﷺ عن ذلك بقوله، وهو يقرع قدم الرجل بسوطه: «أوجعتني فتأخر عني»، وأسرع الرجل إلى الانصراف عن مكانه بعيدًا، وهو يخاف عاقبة ما كان منه، حتى إذا كان الغد أخذ رسول الله ﷺ الإشفاق على الرجل فالتمسه فازداد خوف الرجل، وداخلتْه الأوهام والظنون في أن رسول الله ﷺ إنما يلتمسه ليزيد في عقوبته وزجره، فجاء إليه وهو يتوقع ما خافه، ولكنه رأى وهو بين يدي رسول الله ﷺ من التلطف به والإحسان إليه ما لم يخطر له على بال، فبادر ﷺ فأخبره بسبب التماسه ليهدئ من روعه حتى ينزل الإحسان إليه على قلبه بردًا وسلامًا ورحمة

وإنعامًا، فقال له: «إنك أصبت رجلي بالأمس، فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوضك منها».

هذه مكرمة من مكارم رسول الله ﷺ جمعتْ من صور التربية السلوكية والرحمة ما لم يُعرف في إطار المكارم والفضائل الإنسانية إلا له صلوات الله وسلامه عليه، فهو قد بدأ فأدَّب أدبًا أملته روح التربية التي كانت شعاره ﷺ في بناء مجتمعه المسلم؛ ليجعل من هذا المجتمع بناءً إنسانيًا سليم التركيب الاجتماعي، مستقيم السلوك، قويم الأخلاق، ثم أشفق فرحم وأحسن فأنعم، وأعطى فأكرم، وعوض الرجل عن ضربة ضربها له تعويضًا مسح به ما ألمَّ بالرجل من خوف أرعبه، ومِن توقع أقلقه، فأهدى إليه عطية أثلجت قلبه، وغسلت عنه كل ما كانً في إحساسه ومشاعره، وأعلمه أنه ﷺ في عظيم خلقه ورأفته بمجتمعه أفرادًا وجماعات، ورحمته بالحياة بمن فيها وما فيها أنه لا ينتقم لنفسه قط، وأن تعزيراته وعقوباته إنما كانت من قبيل التربية السلوكية والتأديب المهذب، وقد غلبت رحمته غضبه، ورأى أن قرع قدم الرجل بالسوط قد يتصوره من لم يكن على علم تام بمكارم أخلاقه أنه انتصار لنفسه، فأراد صلوات الله عليه أن يمحو هذا الوهم من أنفس من يتوهمونه، فالتمس الرجل ودعاه إليه، وأخبره بسبب التماسه إليه، وأعطاه عطية تهللت لها أساريره بالفرح والبهجة.

موقف الأنصار من غنائم حنين و موقف النبي ﷺ منهم

الأنصــار كتيبــة الإِسـلام الأولى مـع السـابقين الأولين من المهاجريــن، لم تفقدهم غزوة مع رســول الله ﷺ، ولم تفتهم سرية من سرايا الجهاد، ولا بعثة من بعوث الدعوة إلى الله التي كان يُنفِذها رســول الله ﷺ ويعقــد راياتها، ويوجهها إلى أقوام من أعداء الإِسلام دُعوا إليه فأبوا إلا الكفر بالله والاستمرار على الوثنية الضالة.

وكان الأنصار في غزوات رســول الله ﷺ التي قادها بنفســه الشــريفة حرســه الخــاص الذين يفدونــه بأرواحهــم وأموالهم ودمائهم، وكانوا في غزوة الفتح الأعظم فتح البلد الأمين مكة المكرمــة، هم الكثــرة الغامرة الذين اصطفاهــم القائد الأعظم رســول الله ﷺ ليكونوا كتيبته الخضراء، يحيطونه بأنفسهم، ويحمونه بسيوفهم، وكانت حملات القتال في جميع الغزوات لهــم أو عليهم، فإِن كانت لهم لــم يكونوا إلا طليعة للمكارم، وإن كانــت عليهم هانــت عليهم أرواحهم في ســبيل الله، فهم الصُّبْــرُ عنــد اللقــاء الصُّــدُقُ إذا احمرت حومــة الوغى وحمي الوطيس.

وبهــذه القــوة الفدائيــة كانوا في غــزوة حنين أمام حشــود

هـوازن، وتجمعاتها الهائلة التـي لا يحصيها العد. ولما انهزم الرعـاء من القبائل، وتبعهـم الطلقاء ومـن كان على غرارهم، ممـن لـم تتشـرب قلوبهم الإيمـان في صـدق تبعاتـه في أول جولة فوجئوا فيها برشـق السـهام دفعة واحـدة، وهم غارون، فلم يحتملوا رشـق النبال تمطرهم بالسهام، ولم يصبروا على عض السـيوف، وكانت لحظـة من لحظات الدهـش المذهل، وتقاعس الناس وفروا، ووقف رسـول الله ﷺ في قلة من أبطال الهاشـميين، لا يـزول ولا يحول - كان الأنصـار هم المنادين للكرة الصادقة على الأعداء، وخُلِعت عليهم من القائد الأعظم رسـول الله ﷺ خِلَعُ البطولة، ونـودوا بألقابهم ألقاب الفدائية والشـجاعة، فقيل لهم: يا أصحاب السَّمُرة، تذكيرًا لهم ببيعة الرضـوان التي بايعوا فيها رسـول الله ﷺ علـى الموت، وقيل لهم: يا أصحاب سـورة البقرة، تذكيـرًا لهم بما فيها من آيات الفداء وحب الاستشـهاد في سـبيل الله، وإعـلاء كلمته، وقيل لهـم: يا أنصـار الله، تذكيرًا لهم بما عاهدوا الله ورسـوله عليه مـن نصـرة دينه، في بيعتهـم الكبرى، فـكان جوابهم عن كل هـذا قولهم: لبيك، يا لبيك، وكروا على جموع هوازن وثقيف وسـيوفهم بأيديهم كأنها الشـهب حتى أزالوهم عن مواقفهم، وهزموهم شـر هزيمة، وأخذوهم بالأيدي أسرًا وسبيًا، بعد أن قتلـوا منهم عديدًا من الرجال المحاربين، وطابت للمسـلمين غنائمهم التي لا يأخذها العد والحصر ولا يأتي عليها الإحصاء

والتقدير، وكان الأنصار أحقَّ بها وأهلَها.

وقد أشرنا إلى موقف المهاجرين السابقين الأولين الذين انفردوا بشرف السبق فلم يلحقوا في الفضل، فكانوا أخص الخاصة في مواطن العزة والفداء والبطولة عندما ذكرنا أن رسول الله ﷺ لم يُنِلْ نفسَه الشريفة من هذه الغنائم شيئًا قط، كما أنه ﷺ لم يعط خواص أصحابه، وفي طليعتهم المهاجرون ولا وبرة.

وإنما عرضنا هنا لموقف الأنصار؛ لأن بعض ذوي الطموح من حُدثائهم عزَّ عليهم أن يعطي رسول الله ﷺ غنائم هوازن على كثرتها الهائلة للطلقاء، والذين في قلوبهم مرض من مسلمة الفتح بصورة فاقت كل صور الكرم الإنساني، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، وهم يرون أن سيوفهم لا تزال تقطر دمًا من جموع هوازن وثقيف وحشودهم مما كان هو السبب المباشر في حيازة هذه الغنائم الهائلة الضخمة الغامرة، كما أن هذه السيوف الأنصارية هي التي قهرت من ظل على كفره وعتوه من أهل مكة، فساقتهم إلى الإسلام طوعًا أو كرهًا، فتكلم شباب الأنصار وحدثاؤهم في ذلك بكلام ينم عن غضبهم، وتخوفهم أن يتركهم رسول الله يرجعون إلى المدينة، وليس هو ﷺ فيهم، بل يبقى بين قومه في بلده (مكة)، وسكت كبراؤهم وذوو الرأي فيهم فلم يشاركوهم فيما تكلموا به، ولم ينهوهم عنه.

تلطف رسول الله ﷺ مع الأنصار وإبرازه مناقبهم في الإسلام

وبلغ حديثهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم دعوة خاصة إلى الاجتماع به، فجاءوه: أشرافهم وحدثاؤهم، فتحدث إليهم حديث الوفاء والحب وعرفان الجميل المشكور الذي لا يُنكر، وأراهم منزلتهم من الإِسلام، وما بذلوا في سبيل إعزازه من الحب لله ورسوله ﷺ ، وحسم الأمر بما جعلهم يفيئون إلى منازل رسوخ اليقين، ووزن الدنيا وزخرفها بميزانها عند رسول الله ﷺ من سرعة تقضِّيها وفنائها وحقارة زهرتها، وما يصحبها من غصص وأكدار، فرفع أفئدتهم إلى سمو الآخرة وخلودها وخلوص نعيمها من شوائب الأكدار لمن كان من أهلها في رسوخ الإِيمان وصالح العمل.

وكانت الآية الكبرى في هذا الحديث معهم تطمينهم إلى أن رسول الله ﷺ لن يتركهم يعودون إلى دار الإِيمان المدينة المنورة، وهو ﷺ ليس معهم يقودهم في عودتهم المظفرة إلى داره ودارهم، فمحياه ﷺ محياهم، ومماته مماتهم، وسيرجعون به إلى دار الإِيمان يحوطهم بكنفه، ويكنفهم بحبه ورعايته، يسددهم ويربيهم بأرفع دروس التربية والتفقه في الدين، ويعلمهم مما يعلمه الله، ويرجع الناس إلى منازلهم بالشاء والبعير، فبكى الأنصارُ وقالوا: يا رسول الله، قد رضينا.

أخرج ابن إسحاق والإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري، قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه.

وفي مواهب القسطلاني، فقال ناس من الأنصار: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله إن هذا لهو العجب، إذا كانت شديدة نُدعى وتعطى الغنائم لغيرنا، ووددنا أن نعلم ممن كان هذا؟ فإن كان من الله صبرنا، وإن كان من رأيه ﷺ استعتبناه، وفي حديث أبي سعيد عند الإمام أحمد وابن إسحاق: فقال رجل من الأنصار: لقد كنت أحدثكم أنه لو استقامت الأمور، لقد آثر عليكم غيركم، فردوا عليه ردًا عنيفًا.

وعندنا أن هذا الرجل لم يحسن أن يتكلم بكلمة الإيمان المهذب، ولا ندري إذا صحت الرواية هل كان ممن آمن ولم يرسخ الإيمان في قلبه، فغلبت عليه العنجهية الجاهلية، فقال ما قال؟ ومن ثم فقد عَنَفَ في الرد عليه المؤمنون الصادقون، أو كان ممن في قلبه مرض، فتكلم بأسلوبِ مرضى القلوب؟

وهذا كله كان من حدثائهم وشبابهم، أما رؤساؤهم، فسكتوا ولم يقولوا شيئًا، كما هو صريح رواية الصحيح التي جاء فيها: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئًا.

وعند الطبري من رواية أحمد وابن إسحاق، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، فقال النبي ﷺ لسعد: «فأين أنتَ من ذلك يا سعد؟» فقال سعد: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

حديثه ﷺ مع الأنصار فيما بلغه من مقالة حدثائهم حتى أرضاهم فبكوا إشفاقًا وحبًا:

وهذا القول من سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، والخزرج غمرة الأنصار وكثرتهم إنما أراد به أن يستطلع لقومه حكمة السياسة النبوية في هذا التصرف ليظهرهم على السبب الذي لأجله تصرف رسول الله ﷺ فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من غنائم هوازن؛ ليستصلح سعدٌ نيات قومه ويصفي إخلاصهم لله تعالى في جهادهم، ويعلمهم أن الجهاد في سبيل الله لم يكن في دين الإسلام كحروب الجاهلية، تشعل نيرانها لجمع الغنائم من الأموال والسبايا، وإنما هو قتال لإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الإسلام، وتأليف القلوب على حب هذا الدين القيم. ولهذا قال رسول الله ﷺ لسعد بن عبادة: «فاجمع لي قومك في الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك

هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال ﷺ: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم؟ وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، لله ورسولِه المنُّ والفضلُ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، لله ورسوله المن والفضل، فقال رسول الله ﷺ يلقنهم ألوانًا من الفضل انفردوا بها عن سائر من أظله لواءُ الإِسلام في أرض الله تبيانًا لرفيع منزلتهم، ليعرف حدثاؤهم أنه ﷺ لم يحرمهم العطاء من هذه الغنائم جحدًا لفضلهم، وإنكارًا لمنزلتهم، وإنما أعطى العطاء العظيم ليتألف به قومًا حديثي عهد بكفر، أشفق عليهم أن يستحوذ الشيطان على قلوبهم فيوطن فيها الكفر، ويردهم على أعقابهم إلى الشرك والوثنية، وهما لا يزالان في مداخل أنفسهم متزملين برداء ميراث الجاهلية، وقد جاء في رواية أن فقهاء الأنصار قالوا: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئًا، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإِني أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم».

ثم انتقل بهم ﷺ إلى ما يستل من نفوسهم كل إحساس بأن هذا العطاء الذي تألف به قومًا أشفق عليهم أن تتخطفهم

الشـياطين، فتهوي بهم إلى عذاب النار، ويردوهم عن الإسلام الذي دخلوا في ساحته ولم يُشرَبوا حبَّه، وأنه ﷺ ترك الأنصار -وهم مَنْ هم من السؤدد والفضل- لرفيع منزلتهم في الإسلام، ورسـوخ إيمانهم بموجباته، ومعالم هدايته، فقال لهم مُشِـيدًا بمآثرهـم: «أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتـم وصدقتم، أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسـيناك...، وجدتم في أنفسكم يا معشـر الأنصار في لعاعة مـن الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسـلموا ووكلتكم إلى إسـلامكم، أفلا ترضون يا معشـر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعـوا برسـول الله إلى رحالكم؟ فوالـذي نفس محمد بيده لـولا الهجـرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سـلك الناس شـعبًا وسـلكتْ الأنصارُ شـعبًا لسلكت شـعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا.

ملاحقة فلول ثقيف في حصونهم بالطائف

لـم تكن غـزوة الطائف غزوةً مسـتقلةً، قصد إليها رسـول الله ﷺ قصدًا قتاليًا، ولكنها كانت من ملحقات غزوة حنين.

وقـد ذكـرت روايـاتٌ تجمعاتِ بطـون هـوازن ومن ضوى إليهـا من القبائل التـي حولها بقيادة مالك بن عـوف أن ثقيفًا كلهـا انضمت مع جموع هوازن لمحاربة رسـول الله ﷺ، فلما انهزمت جمـوع هوازن، حقت الهزيمـة المنكرة على ثقيف، وفرَّ المنهزمون من رجال هوازن إلي الوديان والشـعاب، وقمم التلال والجبال.

وبعـث رسـول الله ﷺ السـرايا والبعوث فـي أثرهم، وأمر بتتبع المنهزمين الذين فروا إلى الوديان والشعاب ليقضي على ما بقي لديهم من أسباب المقاومة بكسر شوكتهم.

كانت فلول المنهزمين من ثقيف قد يمَّمتْ بلدَها الطائف، وكان فيهم قائد الحملة مالك بن عوف، فاعتصمت هذه الفلول بحصون الطائف بعد أن حصنتها تحصينًا قويًا، وأدخلوا فيها ما يصلحهم من مُؤَنٍ وطعامٍ وأسلحةٍ؛ حتى لا يحتاجوا إلى النزول منها إلا إذا نفد ما جمعوه، وكان شـيئًا كثيرًا، قيل إنهم زعموا أنـه يكفيهم سـنة أو أكثـر، وتهيَّئوا للقتال مـن وراء حصوهم بأسلحةٍ ليس أسلحةَ الكر والفر، ولكنها كانت أسلحة رمي من أعالي الحصون، أعدوا فيها سككًا من حديد، وجمعوا حجارة

كثيرة، وأمَّنوا سرحهم في رعيه، فأمروا رعاتهم أن يرتعوا في مواطن يأمنون فيها سطوة الجيوش المسلمة، وقاموا على حصونهم بالسلاح والرجال.

وكان رسول الله ﷺ قد قدَّم خالد بن الوليد على مقدمته في ألف مقاتل من سليم وغيرهم من القبائل التي كانت تحت راية خالد في فتح مكة ومن انضم إليه من الطلقاء، فدنا خالد من حصنهم، ودار حوله، ونظر في نواحيه عسى أن يجد منفذًا ينفذ منه إلى ثقيف ومن معها، فيشغلهم بالقتال في داخله ويفتحه لكتائب المجاهدين، ولكنه لم يعثر على منفذ ينفذ منه إليهم، فلجأ إلى سياسة المفاوضة معهم، فوقف في ناحية من الحصن، ونادى ثقيفًا، ينزل إليَّ أحدكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع إليكم، أو اجعلوا لي مثل ذلك، وأدخل عليكم أعلمكم، فأبوا ذلك إباءً شديدًا وأن يفتحوا معه باب المفاوضة على أي صورة، وقالوا له: لا ينزل إليك رجل منا، ولا تصل إلينا، ثم أخذتْهم العزة بالإثم، ونفخ الشيطان في معاطسهم نفخة العتو والفجور، فقالوا كما قال قائدهم في حملة هوازن مالك بن عوف، ومِن قبله يهودُ بن قينقاع: إن صاحبكم لم يلقَ قومًا يُحسِنون القتال غيرنا، فقال خالد -ليُذهب غرورهم ويكسر شوكتهم، ويكفكف من عنجهيتهم وبأوهم، ويريهم ما لعلهم لم يكونوا قد رأوه من انتصارات النبي ﷺ على جميع من حاربوه عنادًا وكفرًا-: فاسمعوا من قولي: نزل

رسـول الله ﷺ بأهل الحصـون والقوة بيثـرب وخيبر ، وبعث رجـلًا واحدًا إلى فـدك ، فنزلوا على حكمـه ، وأنا أحذركم مثل مـا نزل بقريظة ، حصرهم رسـول الله ﷺ أيامًـا ، ثم نزلوا على حكمـه فقتـل مقاتلتهم في صعيد واحد ، وسـبى الذرية ، وفتح مكة ، وأوطأ هوازن في جموعها ، وإنما أنتم في حصن في ناحية من الأرض ، لو ترككم رسـول الله ﷺ لقتلكم من حولكم ممن أسلم ، فقالوا عنادًا وكفرًا : لا نفارق ديننا ، فتركهم خالد ورجع إلى كتيبته .

وكان فيمـن حُصر من ثقيـف عمرو بن أميـة الثقفي ، وهو داهيـة العـرب قـال لهم يحرضهـم : لا يخرج إلـى محمد أحد منكـم إذا دعـا أصحابه إلـى البراز ، دعوه يقيم مـا أقام ، فنادى خالد : من يباز ؟ فلم يجبْ منه للبراز عملًا برأي داهيتهم عمرو بـن أمية ، وصرخ عبد ياليل يجيب خالـدًا فقال : لا ينزل إليك أحد ، ولكنا نقيم في حصننا ، خبأنا فيه ما يصلحنا السنين فإن أقمتَ حتـى يذهب ذلك الطعام خرجنا إليك جميعًا بأسـيافنا حتى نموت عن آخرنا .

حصار ثقيف وشدته على المسلمين

سار رسول الله ﷺ إلى ثقيف، وهي محصنة في حصونها بعدما تأهبت لطول الحصار بما أعدت من مؤنٍ وطعام وأسلحة، ونزل بكتائبه المجاهدة قريبًا من حصنهم، وهيأ نُزُلًا لعسكره، وأشرف أشراف ثقيف من فوق حصنهم فرأوا عسكر رسول الله ﷺ قريبًا من حصنهم تناله نبالهم وسهامهم، فرموا المسلمين بالنبل والمقاليع رميًا شديدًا، ودلوا على من زحف من المسلمين إلى حصنهم سكك الحديد المصهورة بالنار حتى أصابوا عددًا من المسلمين بالجراح، وقتلوا عددًا آخر، فارتفع رسول الله ﷺ بعسكره عن منزله الذي نزل أول ما نزل، وكان قريبًا من حصن ثقيف، تناله نبالهم ومقاليعهم إلى منزل أبعد من مرمى النبل والمقاليع.

وظل رسول الله ﷺ محاصرًا لحصن ثقيف حصارًا اختلفت فيه الرواية اختلافًا واسعًا، لا تتلاقى أطرافه. ومن أكثر الروايات مبالغة في تقدير مدة الحصار ما رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده من حديث أنس أن هذا الحصار كان أربعين يومًا، وأقربها وأشهرها أنه ظل بضع عشرة ليلة، قال ابن حزم: وهذا هو الصحيح بلا شك، ولا ندري ما مراد ابن حزم من جزمه المؤكد بأن هذا هو الصحيح، فإن أراد صحة السند، فهو معارَض برواية مسلم وسنده، ورواية أحمد وسنده، وإن كان قد أراد صحة المتن فمن أين أخذه؟

ولو لم يكن لمسلم رواية لكان لتصحيح ابن حزم رواية بضع عشرة ليلة وجه وجيه؛ لأنها تشمل سائر الروايات التي حددت مدة الحصار بأقل من عشرين ليلة لشمول البضع وصدقه على تسعة عشر ليلة فأقل، ولكن تبقى معارضة رواية مسلم وأحمد بأربعين ليلة، وسند مسلم لا يطعن فيه إلا بأمر بين.

وقد ذكر القسطلاني في مواهبه ثمانية عشر يومًا، وحكى ابن سعد في الطبقات خمسة عشر يومًا، وذكر ابن هشام سبع عشرة ليلة، وذكر ابن إسحاق من رواية زياد بضعًا وعشرين ليلة، ومن رواية يونس ثلاثين ليلة.

وكان الحصار شديدًا على ثقيف، رماهم فيه ﷺ بالمنجنيق، ولكنهم لم يستسلموا، ولم يحسم المنجنيق أمرهم، وظلوا على حالهم في احتمال شدة الحصار.

ترغيبٌ رقيقٌ لحمل ثقيف على النزول

ثم سلك بهم ﷺ مسلكًا آخر، لا يقل وخزًا في قلوبهم عن قطع أعنابهم ونخيلهم، بل كان أنكى لهم، فأمر رسول الله ﷺ مناديًـا ينادي: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر» فخرج منهم كما ذكره ابن إسحاق بضعة عشر رجلًا، فيهم أبو بكرة الصحابي الشهير.

وفـي حديث البخاري عن أبي عثمان النهدي إن الذين نزلوا لمَّا سـمعوا منادي رسـول الله ﷺ كانوا ثلاثة وعشرين رجلًا، قـال أبـو عثمان النهدي واسـمه عبدالرحمن بن ملَّ: سـمعت سـعدًا وأبا بكـرة أن النبي ﷺ قـال: «من ادعى إلـى غير أبيه وهو يعلـم فالجنة عليه حرام» قال عاصم -الأحول- قلتُ لأبي عثمان: لقد شـهد عندك رجلان حسـبك بهما، قال: أجل، أمَّا أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى النبي ﷺ ثالثَ ثلاثة وعشرين من الطائف.

وقد أعتق النبي ﷺ جميع من نزل إليه، كما أخرجه ابن أبي شـيبة، وأحمد عـن ابن عباس رضي الله عنهمـا قال: أعتق ﷺ يـوم الطائف كلَّ من خرج إليه من رقيق المشـركين، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يموِّنه، فشق ذلك على أهل الطائف مشـقة شديدة، ولما أسلمت ثقيف تكلم أشرافهم في أرقائهم أن يرودهم إلى الرق، فأبى رسول الله ﷺ أن يردهم إلى الرق، وقال: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل إليهم».

وبقيت ثقيف في عنادها محصورة في حصنها، لم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف هذا العام، قال العلماء في بيان حكمة ذلك: إشفاقًا عليهم أن يستأصلهم المسلمون لِما وقع منهم لرسول الله ﷺ حين ذهب إليهم بعد موت عمه أبي طالب الذي كان له أقوى سند، وبعد خروجه ﷺ من حصار قريش، ذلك الحصار الظالم الذي تعاهدوا عليه وكتبوا به صحيفتهم الظالمة التي مزقها الله تعالى، فلم يبق فيها إلا اسمه جل شأنه، وكانت قريش قد اشتد ظلمها وعنادها له ﷺ بعد موت عمه إذ توهموا أن الجوَّ خَلا لهم، فذهب ﷺ إلى ثقيف بالطائف فدعاهم إلى الله، وطلب منهم أن يُئووه حتى يبلِّغ رسالة ربه، فكانوا أشد أهل الشرك قبحًا في ردهم عليه ﷺ، وآذوه إيذاء شديدًا، وأبوا أن يدَّرعوا بالمروءة العربية، ولكنهم وقفوا منه ﷺ موقفًا منكرًا، وأخرجوه من ديارهم في صورةٍ تمثل العناد والفجور والعتو المتجبر في أقبح وأشنع صورها.

وقد زاد في غضب المسلمين عليهم أنهم انضموا إلى هوازن في حربها لرسول الله ﷺ مما جعل المسلمين يحملون لهم الحفيظة عليهم، فآثر ﷺ تحقيقًا لما جبله الله عليه من الرحمة والرأفة، وحبه لنشر رسالته الهادية أن يستأني رجاء إسلامهم.

وقد استشار في شأنهم نوفل بن معاوية الديلي، فقال له: «يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟» فقال نوفل: يا رسول

الله، ثعلبٌ في جحر، إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك.

ثم أمر ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤذن في الناس بالرحيل، فضج المسلمون من ذلك، وقالوا: نرحل ولم تفتح علينا الطائف؟ فأخذهم ﷺ بسياسته الحكيمة المحكمة ولم يرغمهم على الرحيل، بل قال لهم: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم الجراحات، فشكوا إلى رسول الله وقالوا: أخذتْنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفًا وائتِ بهم» ثم قال: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله تعالى» فسُرَّ المسلمون بذلك، وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك تعجبًا من تغير رأيهم، وفي حديث الصحيحين: لمَّا حاصر رسول الله ﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئًا قال: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله» فثقل على المسلمين، وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال ﷺ: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابتهم جراحات، فقال ﷺ: «إنَّا قافلون غدًا إن شاء الله تعالى» فأعجبهم، فضحك ﷺ.

قال النووي في شرح مسلم: قصد ﷺ الشفقة عليهم والرفق بهم بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار من أهله، وتقوِّيهم بحصنهم، فلما رأى ﷺ حرص الصحابة على المقام والجهاد أقام وجدَّ في القتال، فلمَّا أصابتهم الجراحُ رجع ﷺ إلى ما كان قصده أولًا من الرفق بهم، ففرحوا بذلك لما رأوا المشقة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ تعجبًا من تغير رأيهم.

هـذا موقف مـن مواقف معالم منهج رسـالة الإسـلام، وهو جدير بالتأمل ليُستَهدى بما فيه من سياسة حكيمة، تجلَّتْ في مسـلك رسـول الله ﷺ وموقفه مع أصحابه، وأخذهم بالرفق، وموقفه مع ثقيف، وأخذهم بألوان من السياسة الحكيمة، على رغم ما أتوا إليه من سوء اللقاء والإيذاء، حين ذهب لدعوتهم إلى الله تعالـى، وحين مكنه الله تعالى منهم، فحصرهم في حصنهم حصارًا قيدهم بأغلال الاستسـلام، وإن طـال عليهم الأمد فقد تلطف بهم، وأشـفق عليهم من سـيوف أصحابـه، ثم دعا لهم بالهدايـة واعتناق الديـن الحق، دين الإسـلام، فقبل الله تعالى دعاءه لهم، وأقبلت وفودهم عليه ﷺ مسلمة مستسلمة.

وفي كل موقف من المواقف المتلطفة حينًا، والمشـتدة حينًا آخـر نماذج من معالم منهج الهداية في رسـالة الإسـلام، توجب على المسلمين في شتى أجيالهم أن يتخذوها مسلكًا في مواقفهم الداعية إلى الله، وسيرتهم الخالدة في نشر رسالة الإسلام.

إسلام عروة بن مسعود الثقفي في طريق عودة النبي ﷺ إلى المدينة

ولما جدَّ برسول الله ﷺ وأصحابه السيرُ، وهم قافلون، لحقه في الطريق عروة بن مسعود بن معتب أحد سادات ثقيف -وكان له موقف في الحديبية- فأسلم وبايع رسول الله ﷺ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بإسلامه، ليدعوهم إلى الإسلام، فأشفق عليه رسول الله ﷺ من عناد قومه وعتو كفرهم، وعنجهيتهم، ونخوة امتناعهم عن مفارقة شركهم ووثنيتهم، فقال عروة: لأَنا أحبُّ إليهم من أبكارهم، وكذلك كان فيهم عروة محبَّبًا مطاعًا، فخرج عائدًا إلى بلده وقومه، وأنبأهم بإسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم.

فلما أشرف عروة على عُلِّيَّةٍ له، وأظهر لهم إسلامه، ودعاهم إلى الإسلام، وأنه آمن بالله ربًا، وبمحمد رسولًا ركبوا صهوات حماقاتهم، واستزلهم الشيطان بكفرهم، وعتوّ فجورهم، فرموه بالنبل فقتلوه، فقال قوم عروة له: ما ترى في دمك؟ يريدون الثأر له، فقال لهم عروة ليصرفهم عن مقصدهم: كرامةٌ أكرمني الله بها وشهادةٌ ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، وقد قال فيه رسول الله ﷺ لما بلغه

استشهاده : «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس في قومه» .

وقد أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا لا تتقدم ولا تتأخر ، وطال عليهم الحصار واشتد ، ورأوا مسارعة الناس إلى الدخول في دين الله أفواجًا ، وصاروا في عزلة موحشة مكفهرة ، وعلموا أن ما قال لهم خالد بن الوليد في محاولته معهم حق مشهود يرونه واقعًا بهم ، فهم محصورون في حصن في ناحية من الأرض لو تركهم رسول الله ﷺ لقتلهم من أسلم حولهم ، فائتمروا فيما بينهم ، ومشى رؤساؤهم بعضهم إلى بعض ، يتداولون الرأي ، ويبحثون عن مخرج يوفضون إليه ليتقوا المزالق الموبقة .

بين عمرو بن أمية وعبد ياليل زعيمي ثقيف في محنتها

وكان داهيتهم عمرو بن أمية الثقفي مهاجرًا لطاغيتهم عبد ياليل لما كان بينهما من سوء، فمشى عمرو بن أمية إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل عليه داره متناسيًا ما بينهما من خصام ومهاجرة، ثم أرسل إليه بعض أهله وقال للرسول: قل له إن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إليَّ، فلم يصدقْ ذلك عبد ياليل واستغربه جدًا واستبعده -لمكان عمرو بن أمية في ثقيف، وما كانوا يحملونه له من منزلة، وما كان معروفًا به من الدهاء وسعة التفكير، وجودة الرأي- فقال للرسول يكاذبه ويظهر له تعجبه مما يقول: ويحك، أعمرو أرسلك؟! قال الرسول: نعم، وهوَ ذا واقفٌ في دارك، فقال عبد ياليل: إن هذا أمرٌ ما كنتُ أظنه، لَعمرٌو كان أمنعَ في نفسه من ذلك.

وخرج عبد ياليل إلى عمرو بن أمية، فلما رآه رحب به، وقال له عمرو: إنه قد نزل بنا أمرٌ ليستْ معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيتَ، وقد أسلمتِ العربُ كلها وليست لكم بحربه طاقة، فانظروا في أمركم.

واجتمع أشراف ثقيف، وائتمروا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحدٌ إلا اقتطع به، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلًا كما أرسلوا عروة بن مسعود، فكلموا عبد ياليل -وكان في سن

عــروة- وعرضوا عليه أن يكون رســولهم إلى رســول الله ﷺ ، فأبى أن يقبل متمثلًا موقفهم مع عروة وقتلهم له، وهو يظهرهم على إسلامه ويدعوهم إلى الإسلام.

وقال عبد ياليل لقومه: لستُ فاعلًا حتى تبعثوا معي رجالًا، فأجمعوا على أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة رجال من بني مالك، فكانوا ستة يرأسهم عبد ياليل.

وإنما فعل ذلك عبد ياليل ليشــغل كل رجل منهم إذا رجعوا للطائف رهطه بحمايته أن يُصنع به ما صُنع بعروة بن مسعود.

فلما دنوا من المدينة المنورة لقيهم المغيرة بن شعبة، وهو ثقفي من رهط عروة بن مســعود، قديم الإسلام، وله موقف في الحديبيــة مع عــروة في كف يده عن مس لحية رســول الله ﷺ وكان في موقفه شديدًا على عروة، وكان المغيرة يوم قدوم وفد ثقيــف في نوبته لرعي ركاب أصحاب رســول الله ﷺ ، وكانت رعيتها نوبًا على أصحابه، تحقيقًا لأعظم معلم من معالم منهج رسالة الإســلام وهو المســاواة المتواســية بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته.

وقد فرح المغيرة بن شــعبة بقدوم وفد قومه فرحًا شــديدًا، وتــرك الــركاب التي يرعاها وضبر -أي وثب- ليبشــر رســول الله ﷺ بقدومهــم عليــه، فلقيــه أبو بكر الصديــق - رضي الله عنه - قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره عن وفد ثقيف، وأنهم قدموا على رســول الله ﷺ ، يريدون البيعة والإسلام وأن

يشـرط لهم شـروطًا، وأن يكتب لهم كتابًا في قومهم وبلادهم وأموالهم.

وكان أبـو بكـر - رضـي الله عنـه - أعلمَ الناس بمـا يُدخِل السـرورَ على رسـول الله ﷺ، فقال للمغيرة: أقسـمتُ عليكَ بالله لا تسـبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدثه لعلمه باستشـرافه ﷺ وشـدة رغبته في قدوم وفد ثقيف مسـلمين، فأراد الصديقُ - رضي الله عنه - أن يكون هو الذي يبشـره ﷺ قبـل كل أحد ليدخل عليه السـرور بقدومهـم، ففعل المغيرة، وحقق رغبةَ الصديق - رضي الله عنه - وأقبل أبو بكر على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدوم وفد ثقيف، وأنهم قد قدموا مسـلمين، يريـدون البيعة والكتاب في قومهم، ورجـع المغيرة إلى ركب قومـه مرحِّبًا بهـم، مُعَلِّمًا لهـم كيف يُحَيُّون رسـول الله ﷺ، وشاركهم في ترويح ظهرهم، ولكن عنجهية الجاهلية، ونخوة العتـوّ فيهم أبتا عليهم إلا أن يتمسـكوا بتـراث جاهليتهم في تحية رسول الله ﷺ.

ابتهاج رسول الله ﷺ بقدوم وفد ثقيف وترحيبه بهم وإكرام نزلهم

وأمر رسول الله ﷺ أن تُضرَب لهم قبةٌ في ناحيةٍ من مسجده الشريف، وجعل خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بين رسول الله وبينهم في الحديث والمفاوضة حتى اكتتبوا كتابهم، وكان خالد بن سعيد هو الذي كتب لهم كتابهم بيده، ولكنهم كانوا لا يزالون على مواريث الجاهلية، فكانوا لا يأكلون طعامًا حتى يأكل منه خالد بن سعيد قبلهم، جهالةً منهم لمنزلة رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق، وجهالةً منهم لمعالم رسالة الإسلام في تزكية النفوس وتطهير القلوب، وكراهية الغدر، وما يجب من إكرام الضيف.

ولكنهم لما أسلموا وبايعوا رسول الله ﷺ، وكتب لهم الكتاب الذي أراده في قومهم وبلدهم وأموالهم بدأت بشاشة الإيمان تخالط قلوبهم وتشرح صدورهم، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ وأعمالهم وتعبداتهم، وسمعوا القرآن الكريم، وسمعوا الحكمة تتنزل على قلب رسول الله ﷺ فينشرها بين أصحابه إيمانًا وعلمًا وأدبًا وتشريعًا وتربيةً.

وكان من أكثرهم حرصًا على التفقه في الدين وتعلم القرآن عثمان بن أبي العاص، وهو أحدثهم سنًا، فأمَّره عليهم رسول الله ﷺ بإشارة أبي بكر – رضي الله عنه – إذ قال: يا رسول الله، إني رأيتُ هذا الغلامَ فيهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

جهالة جاهلة من مواريث الجاهلية

وكان من جهالتهم الجاهلة أنهم في مفاوضتهم قد سألوا رسول الله ﷺ أن يترك لهم طاغيتهم (اللات) فلا يهدمها، وجعلوا لذلك أجلًا مسمًى، فأبى ﷺ ذلك إباءً شديدًا، وظلوا يتخففون من الأجل الذي سموه لمدة تركها شيئًا فشيئًا وشهرًا شهرًا خوفًا من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، وكرهوا أن يروِّعوهم بهدمها حتى يؤنسوهم بالدعوة إلى الإسلام فيدخل عليهم على حقيقته التوحيدية الخالصة من شوائب الشرك والوثنية، وعزم رسول الله ﷺ على أن لا يدعها، فسلموا كارهين بعد ما شاهدوا روح التوحيد الخالص تسري في جميع أعمال الصحابة – رضي الله عنهم.

وأرسل رسول الله ﷺ في أثر ركبهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية (اللات) لما كان بينهما وبين ثقيف من صلات تكف ثقيفًا عن إيذائهما، فالمغيرة بن شعبة ثقفي من رهط عروة بن مسعود – رضي الله عنهما – وأبو سفيان بن حرب، كانت ابنته تحت عروة بن مسعود، وقد وَلدت له ابنَه داود بن عروة.

وقد كان قتل عروة مرزأةً لثقيف، أخاف رؤساءهم وأشرافهم أن يشعل بينهم حربًا داخليةً بين أرهاط ثقيف لمكانة عروة فيهم، ومنزلة رهطه منهم، ولما كان بين عمرو بن أمية وعبد ياليل من التصالح الذي بدأه عمرو بن أمية داهية ثقيف.

ولمَّا قدم أبو سفيان والمغيرة أراد المغيرة بن شعبة سياسةً منه مع قومه أن يقدم أبا سفيان لهدم الطاغية، فأبى أبو سفيان إلا أن يقابل دهاء المغيرة بمثله، فأحجم أن يتقدم على المغيرة خوفًا من ثقيف ونخوتها في شركها ووثنيتها، وقال للمغيرة: ادخلْ أنت على قومك، وذهب أبو سفيان إلى مالٍ له هناك بعيدًا عن معمعان الرجة في ثقيف.

ودخل المغيرة مُيمِّمًا الطاغيةَ، وعلاها يضربها بالمعول، ووقف رهطه بنو معتب دونه يحمونه من غوغاء ثقيف وسفهائهم خشيةَ أن يُرمَى كما رُمي عروة بن مسعود قبله، وخرج نساء ثقيف يبكين على طاغيتهم جهالةً وكفرًا، وكان أبو سفيان قد عاد من ماله حينما تثبت من أمر المغيرة في هدم الطاغية، فوقف ينظر إلى ضربات معول المغيرة وهي تنزل على الطاغية فتفتتها، وهو يقول مصانعةً لثقيف بقدر ما كان عنده من هزهزة: واهًا لك!! واهًا لك!! يظهر بذلك أنه خائف على المغيرة مشفقٌ عليه أن توقع به الطاغية. ولمَّا انتهى المغيرة - رضي الله عنه - من تسوية بناء الطاغية بالأرض أرسل بمالها وحليها إلى أبي سفيان ليقوم بما أمر به رسول الله ﷺ من قضاء دين عروة بن مسعود من مال الطاغية.

وإلى هنا نكف من عنان القلم عن الاسترسال في قصة أحداث ثقيف وإسلامهم وهدم طاغيتهم؛ لأن ما ذكرناه في ملاحقتهم إلى حصنهم ببلدهم الطائف بعد هزيمتهم مع

حشود هوازن وجموعها ممن ضوى إليهم[٢٥] من لفائف المتربصين من بقايا القبائل فيه غنية لتبيان ما قصدنا إليه من إبراز معالم منهج رسالة الإسلام.

فقد صار إليهم النبي ﷺ بنفسه الشريفة، يقود كتائب الجهاد في سبيل الله، ليحسم أمر الفارين من حنين، ويقضي على ما عسى أن يكون لهم من بقية قوة للمقاومة، يستغلها الشيطان في إثارة حمية الجاهلية لمواجهة حشود الإسلام المنتصرة.

وقد أوضحنا في ثنايا عرض الموقف ما كان من النبي ﷺ في محاولته أن يأخذ ثقيفًا بغير حرب مدمرة، وأنه ﷺ آثر أن يتلطف بهم ليهدي الله قلوبهم إلى الإيمان، ويقبلوا عليه مسلمين، فحاصرهم وصبر عليهم وصابرهم، ثم ارتحل عنهم بعد جولات بالترامي بالنبل والمقاليع التي استشهد فيها نفر من المجاهدين.

وكان أصحابه ﷺ كارهين لهذا الارتحال قبل أن تفتح عليهم الطائف، ولكن سياسة النبي ﷺ التي سلكها معهم جعلتهم يغيرون من رأيهم، ويرغبون فيما كانوا له كارهين من الرحيل عن ثقيف حتى يأتي الله بهم مهتدين.

---

(٢٥) ضوى إليه وانضوى إليه بمعنى انحاز. (المجلة)

تلطف رسول الله ﷺ بثقيف حتى هداهم الله

ولم يكد رسـول الله ﷺ يبلـغ المدينة المنـورة حتى تنزَّل غيــثُ الهدايــة علــى ثقيــف، فائتمــروا فيمــا بينهــم وهم في حصنهــم، ورأوا أنهــم -كما قــال نوفل بن معاويــة- ثعلب في جحــر، لــو تركهم رســول الله ﷺ لم يضــروه شــيئًا، وإن أقام عليهــم أخذهــم، وكما قال لهــم خالد بن الوليد فــي محاورته معهم: لو ترككم رسول الله ﷺ لقتلكم مَن حولكم ممن أسلم من القبائل، وتبين لهم أن لا محيص عن الاستســلام والإسلام، وركب وفدهم إلى رســول الله ﷺ ففرح بهم ورحب بقدومهم، وأنزلهم منزلًا كريمًا، ونصب لهم قبةً في ناحيةٍ من مســجده، وبالــغ فــي إكرامهــم، ولكن ذلك كلــه لم يكن ليطفــئ نيران عتوهم وعنادهم مما تجلى في مفاوضتهم للدخول في الإســلام دخول إيمان لا دخول سياسة واستسلام.

ولـم يزل رســول الله ﷺ يــروض جماحهــم، ويكفكف من غلوائهــم فــي عتو الكفــر حتى آمــن وفدهم، ورجــع إلى قومه بإســلامه ودعوتهــم إلى الدخول في ســاحة الإيمــان الصادق، وتقبــل الله تعالــى دعوة نبيــه ﷺ فيهم، حين قال لــه أصحابه - رضــي الله عنهــم - لفــرط ما أصابهــم من طــول الإقامة على حصارهــم: ادعُ على ثقيف، فقد اخترقتْنــا نبالُهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم مسلمين».

فأســلموا وحســن إســلامهم، ولم يقعْ بينهم وبين جند الله

الذين حاصروهم في حصنهم قتالُ مواجهةٍ حتى صاروا من جند كتائب الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وشهد كثيرٌ منهم غزوة العسرة مع رسول الله ﷺ في تبوك، وكان هذا وأمثالُه من أقوى الدلائل على أن غزوات رسول الله ﷺ لم تكن تستهدف القتال وجمع الغنائم وسفك الدماء، ولكنها كانت كلها للدعوة إلى الله، والدفاع عن الدعوة، وحماية حوزة الإسلام والمسلمين، فإن أغنت الحجة والبيان فلا يرفع في وجه أحد الحسام، ولا يطعن بالسنان، ومن لم يغنه البيان وناصع البرهان استُؤني به حتى يثوب إلى رشده، ما لم يرفعْ يده في وجه الدعوة إلى الله، معوقًا سيرها، وناصبًا قلاع القتال لحاملي راية الجهاد في سبيل الله، فعندئذ يجب جهاد القتال للظالمين المعتدين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد حتى يفيئوا إلى الحق ويعتنقوا رسالته.

إطلاق اسم «غزوة» على ملاحقة ثقيف في حصنهم توسع لفظي

أمـا إطلاق اسـم غزوة على هـذه الملاحقـة الثقفية فهو من قبيـل التوسـع اللفظي، ولعـل الحكمة في هذه التسـمية التي أجمع عليها أرباب المغازي وأهل السـير وكثير من المحدثين هو وجود النبي ﷺ قائدًا لكتائبها، ومدبرًا لسياستها، وحاجزًا بين هؤلاء الفارين من هزيمة هوازن في حنين أن تأخذهم سيوف المسـلمين مسـتأصلةً لهم لما كان في سـوابقهم مـن الإِيذاء ومقاومـة الدعوة إلى الله، وفجـور الكفر الطاغي مما فصَّلْنا في مواضعه ومناسباته، ولانضمامهم إلى هوازن في حربهم رسول الله ومجتمعه المسـلم، فعفـا عنهم، ودعا لهـم بالهداية؛ لما جبله الله عليه من الرأفة والرحمة، ومعالي مكارم الأخلاق.

وبهـذه الملاحقـة لفلول ثقيـف في بلدها الطائـف وحصرها فـي حصنها، ومـا تمَّ لهم من نعمة الإِيمان والإِسـلام ببركة دعوة النبـي ﷺ لهـم بالهدايـة والمجـيء بهـم إليه مسـلمين ختمت غزواته ﷺ القتالية التي غزاها بنفسه الشريفة الطاهرة المطهرة، قائدًا لحشـود الجهاد، إعلاءً لكلمة الله، ونشـر راية الإِسلام على آفـاق الجزيـرة العربية التي أصبحت دار الإِسـلام، ولـم يبقَ فيها مُنابذٌ لدعوته ﷺ، ولا مُناكرٌ للإِيمان برسـالته إلا حفنات منتشرة هنـا وهناك في مضارب الأعراب وأطراف الأرض وأقاصي النواحي

الذين لم يتركهم رسـول الله ﷺ دون أن تبلغهم دعوته، بل أرسل إليهـم البعـوث والسـرايا تدعوهـم إلى الإسـلام، فجالـوا معهم جولات، فمنهم من آمن، ومنهم من قوتل وغُلب على أمره فأسلم استسـلامًا حتى علم حقيقة دعوة الإسـلام فأسلم إيمانًا، وجاءت وفودهم إلى رسول الله ﷺ مسلمين مبايعين في طواعية وإخلاص، وكتبت لهم الكتب مرسـلة إلى أقوامهـم تدعوهم إلى الله تعالى، وإلـى الإيمان بمـا أنزل من كتاب حكيم، جمع شـرائع وأحكامًا وآدابًـا، وتربية سـلوكية ونظمًا اجتماعية، شـملت قيام الأسـرة على دعائم من الطهر والمودة والرحمة، وشـملت أصول التعامل بين الناس في الأموال والأخلاق وحسـن المعاشرة وطرح مواريث الجاهليـة إلا مـا كان منهـا مكرمةً إنسـانية، ومنقبـة اجتماعية، كانوا يتحاجزون بها عن الانزلاق إلى مساري المنكرات مما أقره الإسـلام، فأبقاه وحض عليه لأنه مُنطوٍ تحـت فضائله، داخلٌ في مبادئه الإصلاحية حتى تشـعر الحياة أنهـا حاملة في أردانها بذرة الخيـر التي تحتاج في نموها إلى من يتعهدها بالرعاية ويسـقيها بماء الهداية لتثبيت جذورها في منابت الإصلاح.

الفهرس